أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

محمد حسن الألفي

Looloo
www.dvd4arab.com

ساعة الحظ

قصص قصيرة

الإهـداء

إلى صـديق العمـر .. أوفى الأصـدقاء وأعظم الآبـاء ..

إلى والدى الذى علمنى معنى التسـامح والحب والشجاعـة .

الغلاف رسوم الفنان : مجدى نجيب

البـدائى

البـدائى

ما وقع كان فوق طاقته .

بالتأكيد كان فوق طاقته .. رغم أن طاقته بلا حدود .

تلك النظرة المكسورة بعينيه، ترسل ظلامًا، وتعكس حيرة، لم يألفها أحد قط ، وهى غريبة على وجدانه بكل المقاييس .

تلك النظرة المكسورة .. ما أشد التباين بينها وبين نظرة التجبر والتعالى والبطش القديمة ..

فقد المرأة الوحيدة التى كانت تعرف قبل كل البشر أنه حيوان يستحق العطف والحب ، فقد المرأة التى كانت تحب حيوانيته ، وتعطف على شراسته ، وترى فى إنسان الغابة الذى يطعم على لحوم الآخرين ، مجرد روح شاردة ، ضائعة ، مستحقة للرحمة ، لكى ترحم غيرها .

لما دفنها ، وحده تقريبًا ، منتصف ليلة أمس ، تصور نفسه مدفونًا معها ، راقدًا بجوارها ، لا حبًا فيها والتماسًا لقربها فى الآخرة ، بقدر ما هو خوف مما سيحدث لذاته .. ولغيره .. بعد أن فقد العصا الروحية التى كانت تردعه وكانت تقمعه .

كان فى الواقع يحبها لمصلحته ..

مثلما أحب أى شىء آخر .. وكل شىء آخر . وهى الوحيدة التى أفلتت من قبضته ، لأن كل الذين أحبهم قبلها ثم بعدها ، قتلهم ومثّل بأجسادهم !

وبوصفه أستاذًا مرموقًا فى علم النفس ، كان يتمتع بموهبة اكتشاف الجوانب المفيدة للأشياء وللأشخاص .

بعد أن دفنها ، التمس لنفسه العذر فى أنه الآن قد صار بلا ضابط أو رابط .

قال الآن فُك أسرى ، وأخلى سبيلى .

وقال أيضًا « ويل للدنيا منى » .

وأول شىء فعله أن عاد إلى القتل .

قتل أول شخص قابله . أخرج من جيب معطفه الكحلى مسدسًا مكتوم الصوت ، ودفن فوهته فى قلب عابر السبيل الذى كان خارجًا لتوه من صيدلية بناصية ، حاملًا دواء للكلى .

وبعد أن ركله وبصق عليه وسبّه ولعنه لأنه غبى اختار اللحظة الخطأ للموت ، انقلب إلى شارع جانبى مطفأ الأنوار ، وتكوم عند جدار ، وأخذ يبكى كطفل غابت عنه أمه .

ولم يلبث أن استرد جبروته التقليدى ، وهب يمسح عن روحه ضعفها الطارئ الجميل بعد قتل عابر السبيل ، وتهيأت ذاته لضربة أخرى .

كمن بمجلسه ، حتى مرت به عجوز .

عرف من نظرة خبيرة مدربة أنها جاوزت السبعين .

ماذا جاء بالعجوز إليه ؟.. تبدو كأنها مساقة بقدرية حتمية ، وإلا فما السبب الذى جعلها تستجيب لضغوط أصابعه المنتشرة كأسياخ الصلب ، تطارد عروق رقبتها ، دون مقاومة تستجيب ، حتى لفظت آخر أنفاسها طواعية ؟!

ماتت العجوز .. وجلس بجوارها فى الظلام يبكى مرة أخرى .

كان يبكى بعنف . كأنما يتوب .

ولقد زجره هاجس داخلى ، غير أنه ألقى باللوم كله على المرأة التى فضلت الموت على الحياة معه ، تحفظ للآخرين حياتهم . قال إنها لا تستحق دموعه لأنها خائنة بصورة من الصور ، وعلى وجه من الوجوه .. ثم إنها من وجهة نظره تخلت عن مهمتها التى جاءت إلى هذه الدنيا خصيصًا لإنجازها ، وهى أن تظل عصا الزجر الناهية عن معاصيه .

ومعنى رحيلها الوحيد أنها كفت عن أداء هذا الدور ، وبالتالى ، يصبح من حقه انتهاك كافة الحواجز ، واستئناف شهوة شرب الدم .

رجل كرهته الجامعة ، ولفظته المهنة ، وبصقته الحياة الاجتماعية فى كل صورها وطبقاتها ، وأجمعت كلها على أنه « البدائى » العائد إلى نهاية القرن العشرين !

من ناحيته ، كان يروق له أن يرى نفسه آلة بطش عاتية ، بلا عقل ، بلا برنامج ، جاءت إلى الدنيا لتمارس قطع الرقاب . أى رقاب .

أمه ذاتها تبرأت منّه يوم ولدته .

كل الأطفال يخرجون من أرحام الأمهات صارخين مذعورين .. إلا هو .. خرج من رحم أمه ، وأطل برأسه من بين ساقيها المخضبتين بالدم وإفرازات الولادة ، ثم فتح عينيه حتى برقتا وأرسلتا نظرات قاتلة محذرة ، فارتجفت الأم

وتراجع الطبيب ، أما الممرضة فتعثرت وهى تهرول خارج الغرفة !

وبدلا من أن يقول لها الطبيب :

ـ حمدًا لله على سلامتك .. لقد أنجبت ملاكًا .

قال لها وهو يجفف عرقه :

ـ لقد أنجبت فيما يبدو شيطانًا .

على أن الأم لم تعكس فى رد فعلها أى لون من ألوان المفاجأة .. ربما كانت تعرف عن يقين أن الذى كان بأحشائها هو مخلوق من فصيلة الشياطين حملة الوجوه الآدمية !

لأن أباه كان كذلك .

لأن أباه كان من عوالم الصرف الصحى ، بقرية مطمورة من قرى الفلاحين ، بقلب الدلتا .

التقت به ذات ليل .

ذات شتاء .

بجوف بئر مسكون بالعفن والرطوبة والكوابيس .

وازدهر بينهما حب ، وشبت فيهما رغبة ، ووقع بجسديهما اضطرام .

كأنما كانا على موعد .

إذ لم يسألها عما جاء بها إلى حقل معروف فى الناحية كلها بأنه حقل السفلة ، ولم تسأله هى بدورها عما قذف به إلى حقل الأدنياء .

كأنما كانا يسعيان للحمل لذاته ؛ فمن أجل هذا اشتبكا بهمة صاحب الرسالة .

يا الله .. كم روحًا أزهق حتى الآن ؟!

لا يذكر .. لكثرة الذين سفحهم وسفك دماءهم لم يعد يذكر .

لكنه ، بالتأكيد ، لا يزال يذكر شيئًا ما غامضًا ، غريبًا مريبًا بوجه العجوز التى خنقها .. والملقاة عند قدميه .. إن بعينيها نداء ما .. إلحاحًا ما .. رسالة لم تكتمل سطورها .

إنها فى الواقع أمه !

جاءت إليه فى وسط أعاد إلى ذهنها بئر القذارة فى حقل السفلة .

جاءت إليه حيث توقعته .. تمامًا كما توقعت أباه .. على أن رسالتها هذه المرة مختلفة . إنها لا تبحث عن حمل ، فى ولدها أو من ولدها ، حاشا لله ، بل تبحث لولدها عن مرفأ تستكين به روحه المعذبة ، ومن أجل هذا أتاحت له روحها ، ويسرت له عملية خنقها ..

مرة أخرى .. عاد ينظر إلى وجه العجوز المتغضن .. إنه حقًا وجه أمه . إنه لم ير ذلك الوجه القديم المتعب منذ سنوات وسنوات .. إنه بالتأكيد وجه أمه ، وأحس براحة شاملة ، وهو يوسدها ذراعه ؛ بينما تفجر بقلبه اشتياق عات عارم مواز ، يبحث عن أبيه ليوسده الذراع الأخرى !

★ ★ ★

عاشق النسر

عاشق النسر

الألغام ، التى سأفجرها أمامكم الآن ، تخصنى أنا وحدى .. جدًا .

وأعجب لما يدعونى لتفجير أعماقى ، أنا الذى دأبت على تفجير أعماق الآخرين ، لكن قدرًا من الشجاعة العارضة ليست حكرًا على الأبرار وحدهم . صدقونى ، ما من شرير إلا وفى قلبه قبس من الرحمة . بهذا التبرير وبهذا المعيار ، أرى نفسى فى لحظة شجاعة نادرة ، طارئة على مجموعة القاذورات التى أنطوى عليها ، هذا حق ، لكنها شئنا أم أبينا ، شجاعة نادرة .

وهى نادرة لأن حياتى سلسلة من الانحناءات الممتدة .. ولقد دخلت آخر انحناءة .

فإننى فى عام المعاش ، وإنى وبحمد الله لأستاذ متمرس فى فن النفاق ، ولاعب سيرك لا يبارى فى الكيد للزملاء ، ويمكنك أن تعدنى علمًا من أعلام التاريخ الإنسانى فى علم التبرير والتمرير ، علم تسمعون به ، ولكن لا تعرفون بالتأكيد أنى واضع قواعده وأصوله .

يسموننى فى الوزارة « الحشرة » .

سمعتهم بأذنى مرات ومرات ، ومن عجبى أنى صرفت الوصف عنى ونسبته إليهم ، لإيمانى العميق بأن الفاشلين من البشر هم دود يرعى ، لن تقوم له قائمة .

باق من الزمن ١٢ شهرًا فقط ، بعدها أصير حصانًا يستحق ضرب النار .

بعد الـ ١٢ شهرًا فقط ، سأحرم خلق الله من متعة العذاب وبهجة المعاناة ، ولن تعود بهم رغبة فى الحياة بدونى .

أجلس - فى وظيفتى - عند نقطة دخول الروح وخروجها .

بعبارة حاسمة ، أنا حامل أختام قرارات الإسكان فى الوزارة .

بدون الختم ، لا معنى للورقة التى يحملها المواطن .

وبدون الختم ، يصبح من حقه بل من واجبه أن يبلها ويشرب ماءها .

وبدونى أنا .. لا شقة ولا مأوى .

ولا توجد فى التاريخ الإنسانى كله عبقرية بلا جذور .. فكل عبقرى وراءه سلالة من العباقرة والنجارب والحق أشهد أن النجارب هى ما أملك ، فليس فى سلالتى فروع مماثلة .

أدركت أهميتى لأول مرة فى حياتى ، حين نصبتنى أمى على خزائن الطعام فى البيت ، قالت لى :

« اعط لهم بقدر ، ولا تفرط فى الأمانة » ولقد أعطيتهم بقدر ولم أفرط فى الأمانة ، قالها لى بعد ذلك الوزير نفسه ، فأمنت أنى ابن ناس ومن أصول تربوية راقية .

ذات يوم تحلق حولى أخوتى - كانوا ٩ - وطلبوا إلى زيادة فى حفان الأرز والخضار ، فأعرتهم الطناش العظيم ، فلما رأيت دموعهم ، قلت فى نفسى إن طاعتى واجبة عليهم وزعامتى قدر مكتوب فوق الجباه .

بالمناسبة لم أكن أكبر إخوتى ، بالعكس أنا الأوسط .. ولقد رأت أمى التى تكفلت بالتربية بعد وفاة أبى أنى مطقطق واع ، بينما الكبير دُهْل وعينه فى قفاه - على حد تعبير الوالدة .

لكن التحول الخطير فى حياتى بدأ بعد التخرج فى الجامعة .

كنت ألحظ إشارات ما من بعض الزملاء وخاصة الزميلات ، وهى إشارات ملخصة فى روح « استحقار » لشخصى ، لم آبه لها .

أقول إن التحول الخطير بدأ بعد تعيينى فى الوزارة .. فلقد شعر كثير من الزملاء أننى رجل تافه بدليل الوظيفة التافهة المسندة إلى . عرفت إحساسهم وتأكدت منه فأقسمت بأيمانات الله أن أجعلهم يندمون على هذا الشعور الطبقى .

وقلت بأعلى صوتى للمرآة فى الحمام : الرجل يصنع المنصب وليس العكس .

وهكذا جعلت من إدارة الحفظ والأرشيف مفخرة السياح والمستوظفين بعد أن كانت مقبرة الملفات والأضابير .. وبعدها رقيت ، ليس بعدها بالضبط ، إنما بعد أن وشيت لرئيسى المباشر بما يدبره الزملاء المحترمون ضده للإيقاع به (كانوا يدبرون لسرقة مستند خطير فى ملفه الخاص) .. بعد الإطاحة بالمماليك والأصاغر حزت النسر الأعظم ، البـاب الإمبراطورى إلى القوة والمنعة والسطوة وجرأة القلب .

صرت أمتلك النسر فى درجى .

حبسته ، ذلك القرص المعدنى الصغير المنقوش بالطائر العظيم يحيط به اسم مصلحتى الموقرة ومن تحت القرص

وسادة زرقاء محبرة ، ترويه بما ينطقه ، فيفتح بوابات القلاع الموصدة ، ويحسم الجدل ويفسح الطريق أمام الحق والباطل .

كانت ولا تزال ـ أحلى لحظة فى حياتى تلك التى أنفخ فيها على وش النسر بقوة فيكتسى بتلك الغلالة الضبابية ، فيلمع قليلًا ثم يتهيأ بين أصابعى لقبلة عميقة على الورقة التى تحمل قرار الوزير بالموافقة على تخصيص شقة تحت الإنشاء فى العمارة رقم مليون بحى المشترى فى كوكب « المجهول » .

وكما قلت ، فإن أهميتى وخطورة شأنى ليست مجرد حيازة قبلة الحياة ، بل أنها وثيقة الصلة بمهارة فريدة نشأت معى بحكم التربية . بعض الزملاء الذين يدرسون الفلسفة يسمونها مهارة الكذب ، لكنها عندى وفى مذهبى القدرة على النقل والإضافة .

أنقل كل ما أسمع ولا بأس من التجويد .

أذهب إلى مدير الإدارة يوميًا ومع رشفات البن المحوج ـ أنا الذى أشترى الربع من آن لآخر ـ أسكب فى أذنه اليمنى بما سمعت أو ما يخيل إلى أننى سمعت .

وكلما آنست منه شغفًا ، توسعت فى التوسع وأضفت إلى الإضافة ، حتى لم تعد تبقى صلة بين الأصل والصورة .

وهذا ما جرى حين تصدرت بجسارة لكشف غموض العلاقة بين فتحى حسين وثريا منعم طوال ثلاث سنوات .

ثريا موظفة قديمة ، لها عندنا ٢٠ سنة خدمة ، ولا يجهل أحد فضلها وكرمها ، كما أن حكايتها صارت مثل آثار مصر .

إنها تريد الزواج بأى ثمن بعد أن دهمتها سن الأربعين .

وعندما جاء فتحى حسين إلى الإدارة كان بعد شابًا حديث التخرج عريق الفقر ، ليس له مأوى فى طول القاهرة وعرضها .

وكان قد أعلن أنه يسافر يوميًا من بنها إلى القاهرة والعكس وأن زحام القطارات وإنهاك السفر قد نالا منه .

الذى أعلمه أنها آوته ورعته وغيرته وآثرته .

والذى أعلمه أن الفتى الجميل رد الجميل مضاعفًا من شبابه ومن جوعه ومن ولعه باللحم الأبيض المسقى بالعز القديم .

لم أر شيئًا بعينى .

أقسم بالله العظيم أننى لم أر شيئًا بعينى هذه التى سيأكلها الدود . لكن تخيلت ما يمكن أن يجرى . تخيلته هذا حقى ، ولكى أكون أمينًا سأقول إن هناك علاقة ما ، فيها تفاعل جسدى كيميائى عنيف ، وما دامت العلاقة قائمة فكل شىء بعد ذلك جائز .. أما التفاصيل فتشهد عليها غرف النوم ، لا نحن .

وبالعقل يا جماعة ، فالمرأة فى ضعف عمر الفتى تقريبًا ، والفتى لا دخل له ومرتبه ملاليم ، ثم هوى قوى ، لكن الحصان بدأ ينزل ، فلم يرض أن تمتص قوته وتخصم من رصيده وتضيفه إلى رصيدها ، السكوت هنا هو الجريمة بعينها . جريمة أخلاقية وإدارية .

وفضح العلاقة واجب وظيفى فى المقام الأول .

ولقد فضحتها .

ويوم رمانى بعض المحفلطين حولى بأنى شهرت بها وبفتى برىء ، دفعت بأنى فضحت إثمًا ولم أفضح إسمًا .

وقلت فى خطبتى الغاضبة إننى مستعد للتوقيع على ما أقول وليشهد على النسر .

ثم وقع ما لم يكن فى الحسبان ، وصفق لى موظفون كثيرون ، فلقد طلبت السيدة ثريا منعم نقلها فأبى الفتى تشردها بسببه فطلبها إلى الزواج فوافقت .

وهكذا فإنى أسديت خدمة ستدين لى بها حتى آخر العمر . ماذا أيضًا فى ملف حياتى الجليل ؟

الكثير .. أبرز ما يقفز إلى الذاكرة ذلك الرجل الذى جاءنى ذات يوم وفى يده المرتعشة طلب ويريد أن أضع « قبلة » الحياة على قرار الحكومة بالموافقة على حيازة شقة بالتقسيط الممل .

لم يعجبنى شىء ما فى وجه المواطن ، لعل شعره المنكوش قرفنى ، لعل مزاجى كان متكدرًا إثر فشلى الذريع فى الفراش ليلة أمس .. ثم إنه .. ثم انه رجل لزج لحوح . صحيح أنه أرضانى بالمديح وعبأنى بالنفاق ودعا لى بالصحة والستر ، لكن هذا كله غير كاف لمنح قبلة الحياة .

وإشفاقًا عليه ، أرجأت القبلة أسبوعًا . لكنه لم يحفل بالإرجاء ظل يتردد على خوفًا أن أتبدد أو أموت ويموت معى النسر ، فانقطعت أنفاسه وسقط ذات يوم على السلم فى الدور التاسع ـ كان المصعد يومها معطلًا بأوامر من الموظف المختص للحفاظ عليه وصيانته .

أسرع السعاة ومعهم خلق كثيرون بيدهم أوراق كثيرة مثل الورقة التى بيدى .. وجىء بالماء البارد وجىء بمقعد وصنع أشخاص مراوح من الأوراق بيدهم ، لكن فاضت روح المواطن الصابر الشجاع العظيم إلى بارئها قبل أن تتيح لى شرف ختم الطلب .

« يا أيتها النفس المطمئنة ★ ارجعى إلى ربك راضية مرضية ★ فادخلى فى عبادى ★ وادخلى جنتى ... »

جلست حزينًا فى مكتبى وقلت للذين جلسوا يواسوننى إن الرجل مات وهو يطالب بحق .. ولا يضيع حق وراءه مطالب . الطالب مات لكن المطلوب باق ونحن مستعدون لملاقاة الورثة .

هذا إذن عامى الأخير .

إنه عامى الأخير . سن الستين حدث ولا حرج . مشوار طويل قطعته بالتعب والعرق والكفاح . عرق لم أبذله وحدى ، بل حرصت أن يبذله معى الآخرون أولئك الذين ساقتهم حظوظهم التعسة للمرور بقدمى .

اغفروا لى شجاعتى .. اللهم اغفر لى ويسر لى نهايتى واجعل اللهم النسر رفيقى .. فبذلك يكتمل موتى كما اكتملت حياتى .. إنك أنت السميع المجيب .

« ختم »

★ ★ ★

من تحت لفوق !

من تحت لفوق !

العصرية وسحاب ديسمبر ، وجو رمادى عكر يغلف القلب ويقبض الروح ، والشرفة فى الطابق التاسع ، وزوجتى غادرت إلى أهلها ، فى زيارة طوارئ لأن أباها نقلوه إلى العناية المركزة أو « الإن عاش » ، فأنا قلبى لا يغفر ولا يسامح ، وهو الذى حوله عن الغفران والتسامح .

لم يترك لى الرجل فرصة واحدة وحيدة لكى أحبه أو أحترمه !

لذلك لم أذهب معها ، وقلت لها ببرود القطبين إننى مهيأ لتحمل كافة العواقب المترتبة على امتناعى عن زيارة رجل ابتكر من الفنون والحيل ما جعل خلايا قلبى تسود واحدة بعد الأخرى ، حتى تفحمت بغضًا له .

فى الشرفة أنا إذن ، وقد غصت فى مقعد خيزرانى له حاشية كثيفة بدينة ، وأمامى كتاب ليس مهما ذكر إسمه ، المهم أنه كتاب ، ويخيل إلى أنه رواية ، المهم أننى أحاول أن أقرأ ، ولقد وضعته أمامى لأغرى نفسى بالقراءة ، غير أن الجو الرمادى لا يحرض على شىء سوى عكارة النفس واضطراب الروح ، ولا يحفز إلا على الانكفاء ، ومغالبة شعور داهم بأن ثمة شيئًا يقتطع منك ، والولد الصغير أيمن من حولى كالنحلة ، يلف ويدور .. ويلف ويدور ، ويزن ويئز ، ولا يكف

ولا يكن . طلبات وراء طلبات . وبلل وراء بلل ، وفى لحظة غريبة كرهتنى فيها ربطت تصرفات الولد بأعمال جده ، ورأيت لأول مرة أنه أخذ عن جده الكثير من الملامح ، العين والحاجبين والأنف وكرهت أن ضبطت نفسى منطويا على كراهية لولدى لمجرد أنه يشبه جده ، غير أن هذا لم يمنع أنى شعرت بهذا المقت المفاجئ .

ولعل هذا يفسر سر غضبتى التى دهمت الولد ، إذ صرخت فى وجهه صرخة زلزلته ، فوقف مبهوتًا ، غير فاهم ، قد ركز عينيه فى عينى ، وأرسل فى نظرة حيرة ولوم ، زامًا شفتيه الورديتين ، يمسكهما عن رغبته فى بكاء ، فلما ضممته برموشى وعكست فيه حنانى ، أضاء وجهه بغفران وصفح ، وهتف :

ـ عايز شيكولاته يا بابا .
ـ الشيكولاته فى الثلاجة .. خد لك واحدة .
ـ بابا أنا عطشان .
ـ اذهب واشرب .
ـ مش عايز اشرب . عايزك تسقينى !
ـ تعالى أسقيك ! شربت ؟
ـ آه .
ـ ما تقولش آه كالحمير ؟ قل الحمد لله .
ـ الحمد لله يا بابا .. قلنا الحمد لله .
ـ لا تتأفف يا قليل الأدب .
ـ قليل الأدب انته .
ـ أمك معرفتش تربيك . أبوها معلمهاش حاجة .

ـ بابا عايز الكورة ، هات الكورة ولاعبنى .
ـ يا ولد اسكت . دماغى وجعتنى فلقتنى .. روح خدها من أوضتك .
ـ لا .. ماما قفلت عليها الدولاب .. وماما معها المفتاح .
ـ يبقى تستنى لما ماما ترجع .
ـ لا افتح لى انت الدولاب .
ـ يعنى أكسره يا خويا !
ـ اكسره يا بابا .
ـ طب اسكت .
ـ مش ح سكت عايز الكورة . مليش دعوه عايز الكورة .
ـ اسكت خلينى أفكر إزاى أجيبها لك . تعالى نشوف بص إنت هنا وأنا أبص هنا . آهى الكورة خذ .
ـ لاعبنى .. ياللا شوط .. شوط كويس يا سى بابا . جون .. جون .. هيه .. هيه .
ـ بابا ماما اتأخرت ليه ؟
ـ يا ريت تتأخر بجد يا أيمن .
ـ جدو عيان يا بابا ؟
ـ عيان وبيموت ، ويمكن مات .
ـ هو مات يعنى حطوه فى التراب يا بابا ؟
ـ آه مين قال لك ؟
ـ ماما .. كنا بنشوف الفيلم فى التليفزيون .
ـ يموت يا أيمن يعنى يطلع فوق .. فوق فاهم ؟
ـ فوق إزاى وهو فى التراب ؟
ـ آه .. دى صعبة عليك .

فوق يعنى روحه تطلع السما وتحت يعنى جسمه ينزل الأرض .. فاهم ؟

ـ طيب وليه روحه تطلع من غير جسمه ؟ ما ربنا ياخده كله على بعضه أحسن ؟

ـ والله معرفشى يا غلباوى ليه ؟

ـ طب وليه يموت يا بابا ؟

ـ آه .. دى سهلة قوى .. يموت لأنه بنى آدم وحش .

ـ وأى إنسان وحش يموت يا بابا ؟

ـ لا يا بنى .. الناس كلهم بيموتوا ..

ـ وانت حتموت يا بابا ؟

ـ آه .. بعد جدك إن شاء الله ؟

ـ وأنا سأموت يا بابا ؟

ـ اسكت يا أيمن .. اسكت انت لسه صغير .. بعد الشر .

ـ طيب يا بابا لما جدوا يموت ويروح فوق عند ربنا ، يبقى عند ربنا أحسن ولّا هنا أحسن ؟

ـ طبعًا فوق أحسن يا فالح .

ـ الله ؟!.. طيب ليه مش عايزنى أموت وأروح فوق أحسن ؟

ـ يا بنى .. حرام تفكر كده .. مش غلطتك .. غلطتى أنا .. غلطة المجحوم ؟

ـ المجحوم ؟

ـ آه .. مجحوم وستين مجحوم .. قلها لامك وأنا أكسر دماغك ودماغها .

ـ دماغها ناشفة يا بابا .

ـ آه يا شقى .. لسانك طويل يا ولد .

ـ طيب يا سيدى لما جدو يموت ويروح عند ربنا حياكل عنب كثير ؟

ـ لا .. حيحطوه فى البوتاجاز ويفتحوا الأنابيب على آخرها !

ـ حيحمروه يا بابا ؟

ـ لا حيشووه وانت الصادق .

ـ إنت نفسك يشووه ؟

ـ نفسى يبعد عنى .. عارف ليه ؟

ـ لأ مش عارف ؟

ـ عشان ده هو اللى حيشردك وحييتمك ويخرب بيتنا .. ضربنى على وجهى بالقلم ولسه حاسس بصوابعه فوق خدى سخنة مولعة .. ولسه قلبى قايد منه .. الراجل ده نفسه ومنى عينه يموت باباك .

ـ جدو وحش يا بابا .. يا رب يموت يا رب .

ـ بالتليفون حنعرف .. فى أى وقت حيدق .. بس لما يدق ارمى السماعة .. دلوقتى سيبنى أقرأ وانسجم .

ـ انسجم يا سى بابا .. هات بوسه.

ـ خد لك بوسه وياللا .. ياواد ماتطولش فى البوسة .

ـ ليه يا بابا مش انت بتطول مع ماما ؟

ـ آه يا عفريت .. مين قال لك ؟

ـ محدش قال لى أنا بعينى شفت .

ـ إمتى يا ولد ؟

ـ فى المطبخ .. الصبح .

ـ طب اخرس خلاص .

ـ خرست خلاص يا سيدى .. يا بابا يا بابا .. عايز أقعد معاك هنا فى البلكون .. حاقعد ساكت والله .. رجلى وجعتنى م الوقفة .

ـ طب هات الكرسى اللى هناك واقعد عليه .

ـ لا .. الكرسى لا .. عايز أقعد على الترابيزه دى .

ـ بس الترابيزه دى عاليه وممكن تقع .

ـ متخافش يا بابا .

ـ اطلع طيب بس بالراحة .

ـ هه .. هبا ياللا .. هبا .

ـ خلاص يا سيدى أديك قعدت .. عايزك تسكت بأه علشان أقرأ وانسجم .

ـ انسجم يا بابا انسجم .. أنا قاعد ساكت أهو .

ومددت يدى وأمسكت بالرواية وفتحت على الفصل الأول .

تنهدت وسحبت نفسًا عميقًا .. ورأسى يحلق بعيدًا فى غرفة العناية المركزة ، وأمنيات شيطانية تحتل كل تفكيرى ، وبلغت فى القراءة فقرة تقول : « ثم سحب الشاب عصًا غليظة مغموسة فى المرارة ، وهوى بها على رأس العجوز فهشمها وهشم معها كل سنوات العذاب » .

وتلفت حولى فلم أجد أيمن ، فقلت لعله فى غرفته يحطم لعبه وأشياءه كالعادة ، وطويت الرواية غير إنى لم أستطع أن أطوى عقلى بعيدًا عن الإنعاش ، يحوم فوق سرير العجوز ، وفجأة رن جرس التليفون ، إنه جرس الباب .. لكن أيمن لم يرد علي .. شغلته أشياؤه ولعبه عن الرد على أبيه .

متثاقلًا نهضت .. وفتحت الباب .. فطالعنى وجه البواب مذعورًا يسد المنظر عنى ، ومن حوله رءوس كثيرة فيها عيون واجمة حزينة .. ووقع بصرى على ما بين يدى البواب .. إنه أيمن .. وقد جاء به إلى من تحت لفوق !.

★ ★ ★

ساعة الحظ

ساعة الحظ

(١)

يحكى أنه فى اليوم السابق على بدء الهجوم الرئيسى أن جلس القائد الشاب وسط أفراد مجموعته القتالية المشهورة بالشراسة والطاعة العمياء ، وتحدث فيهم طويلًا ـ لأول مرة طويلًا دون اقتضاب ـ عن طبيعة العملية العسكرية المرتقبة ، وأهداف الهجوم الليلى التمهيدى الذى سيقوده مع مجموعته .

وركز القائد على أن هدفه الأول والأخير هو تدمير مستودع الوقود الذى يغذى دبابات العدو وعرباته ، ثم أفاض ـ للمرة الأولى أيضًا ـ فى شرح إمكانيات السلاح الحديث الذى بأيديهم ، ودلت ملامح وجهه الصارمة على اعتقاد كامل بهذه الإمكانيات .

كانوا خمسة وعشرين جنديًا ، مدربين على كافة فنون القتال الضارى ، وكان يفخر بهم وبقيادته لهم ، غير أنه ظل يحتفظ بهذا الشعور بأعماقه .

فى تلك الليلة ، وقد أوشكت الساعة أن تتجاوز منتصف ليل فبراير وقف القائد أمام قواته مشدود القامة ، مضموم الذراعين والساقين والكعبين ، عند سفح تل رملى ، تحت قمر خافت مضطرب الضوء تركض السحب الكثيفة على وجهه ، وراح

يعيد شرح الأهداف الرئيسية للعملية بصوت حاسم ، قاطع . جهورى ، ثم أوغل فى بيان التكتيكات المحتملة عند التنفيذ ، والبدائل التى يمكن أن تفرض نفسها فى ظروف الاقتحام المباشر .

انتهى من كلامه .. استعرض قواته .. فتش على أفراده وراجع أسلحتهم وذخيرتهم ، وتثبت من أن كلًا منهم قد تزود بطعامه ومائه ، ثم سألهم وهو يقلب نظره فى وجوههم ويمضى أمامهم بخطوات ثابتة جيئة وذهابًا :

ـ القوة جاهزة ؟

بثبات أجابوا جميعًا فى صوت واحد راعد :

ـ جاهزة يا افندم .

ارتسم رضا على وجهه وقال :

ـ إذن على بركة الله .

وأصدر أوامره بالتحرك .

بخطوات رشيقة ، سريعة ، خفيفة ، استقلوا سيارات نقل الجنود ، فمضت بهم فوق رمال صعبة ، حتى أدركت طائرة هليوكوبتر ، كانت رابضة على مسافة ثلاثة كيلو مترات .

(٢)

بالمظلات هبطت المجموعة الخاصة ، ومعها قائدها خلف خطوط العدو ، بمسافة غير بعيدة .

الدنيا ليل ، الساعة التى لا فيها فجر ولا ظلام ، إنما جو رمادى مقبض ، تضطرب فيه النفس ، وتختبئ الكائنات ، وتصبح الروح مهيأة للاكتئاب أكثر من القتال !

وهواء فبراير لاسع بارد كوخز الإبر أو الشوك ، والقمر المخنوق يجاهد فى كشف ركام السحب عن عينيه ، وصمت ثقيل وعيون مسنونة النظر تثقب الليل ، والآذان مشدودة بينما السكون الشامل يدوى ، أما النفوس فانطوت على مشاعر شتى ، إذ تتهيأ لقتل أو موت !

ومن فوق ، ومن بعيد ، بدا منظرهم وهم يدلفون إلى حضن مرتفع من الأحجار الجيرية المعجونة بالرمل ، وكأنهم أشباح عائدة إلى بيوتها ، أو ظلال لأرواح هائمة .

جاء صوت القائد ليبدد وحشة طارئة فى النفوس ، فقال بصوت خافت حذر :

ـ بعد قليل .. سنهاجم .

وراجع وجه مساعده الرقيب أول ، وسأله فى لهجة آمرة :

ـ الناس جاهزة يا رقيب أول ؟

تنحنح الرقيب أول وقال فى صوت غريب .. حتى على أذنيه هو ذاته :

ـ جاهزة ولكن !

خيل إلى القائد أنه لم يسمع ، أو خيل إليه أن ما سمعه قد نطق به جن ، وتوقع آخر شىء يمكن أن يقول به جندى لقائده ، فأعاد السؤال مرة أخرى ، فتلقى الإجابة :

ـ جاهزة ولكن يا افندم !

ـ فى العسكرية لا توجد لكن يا جندى .

ـ أعرف يا سيدى .. لكن للضرورة أحكام .

ـ أتهرج يا جندى ؟

ـ أبدًا يا افندم .. إنى صادق والله !
ـ ماذا جرى ؟
ـ لدينا عريف مصاب بمغص الزائدة !!
قالها فى لهجة تفسيرية متعاطفة .. فهتف القائد بصوت عال غادره الحذر :
ـ نعم ؟ الزائدة ؟.. الآن . وهنا ؟
ثم صمت .. ثم قال :
ـ تحركوا .
ـ والممغوص يا افندم ؟
ـ دعوه .
ـ يموت يا افندم ؟!
ـ الخسائر متوقعة .
ـ يموت بالزائدة ولا يموت فى قتال ؟
ـ ممنوع الحوار يا جندى !.. أطع الأوامر .
ـ حاضر يا افندم .
وحل صمت متحفز .. مزقه صوت جندى ثان :
ـ عينى تؤلمنى يا افندم ؟
وصاح ثالث :
ـ وضرسى .
وبكى رابع :
ـ أمى وحشتنى .
تجهم وجه القائد ، وأنذر الموقف بأزمة ثم ركبته روح ساخرة ، فتساءل بدوره أمام جندى سابع :

ـ وانت .. ؟
ـ أفندم .
ـ ألست بك الدورة أيضًا ؟!
ـ عيب يا افندم !
ونفض القائد كتفيه متصورًا أنه ينفض موقفًا طارئًا ، وشد من قامته ، واسترد وجهًا مألوفًا لديهم ، وأمرهم بالتجمع صفًا واحدًا مستعرضًا ، وأخذ يوجه أوامره ، وهو حريص ألا تعلو نبرة صوته تحت تأثير الغيظ والمفاجأة .
تراكم فية إحساس قوى بأنهم غرباء عنه أو أنه غريب فيهم ، وتمدد فيه هذا الإحساس المميت كالعضلة الرئيسية ، حتى كاد يوقن أنه فى مكان خطأ !
هل أقود قافلة من الكذابين ؟.. تساءل فى نفسه غير مصدق ، إنه يشعر أنه خدع ، بل يشعر أنه يقود أعداء له . إن الجنود يتمارضون ويتراجعون وهم على مبعدة أمتار من عدوهم .. وهو يعلم أنه فى وضع المباغت .
لقد راجعهم وسألهم ولقد أجابوه غير أنه لم يستطع أن يتبين صدقهم من كذبهم . قالوا « جاهزون » وماذا عسى أن يقول الجندى لقائده غير ذلك ؟!
واشتم فى الجو وفى الظلام الأزرق تراجعًا وخذلانًا .
وبخطوات وئيدة . اقترب من الرقيب أول ، وقال بهمس أقرب إلى الرجاء :
ـ الناس متخاذلة .. وهذه كارثة ..
ثم اشتدت لهجته حتى علت :
ـ وسوف أحاكم الجبناء !

فأجاب جندى يقف فى آخر الطابور :

ـ اسمع يا قائد !.. ليس فينا من جبان أو متخاذل .. فينا فقط الذى عنده مشكلات والذى فى قلبه هموم .

وقال جندى بجواره :

ـ ونريد طرحها للنقاش وإيجاد الحلول الآن !

ـ الآن ؟.. الآن ؟ مشكلات وهموم ونحن فى مهمة قتالية ؟ مهمة يتابعنا فيها الوطن كله ؟ العدو أمامنا والرمال حولنا والعار خلفنا ؟

ـ هذا كله فى صدرك أنت وحدك .. هذا ما تراه أنت وحدك .. وتسمعه أنت وحدك ولا تسمع سواه أبدًا .

ثم قال ثان :

ـ ليس هذا وقت للشعر يا افندم .. ودعنا نوضح لك الأمر . العريف عينه تؤلمه لأن الرملة دخلت فيها وأنت تمسح به الأرض مستمتعًا .

ـ كنت أصنع منه رجلًا .

ـ لا يصنع الرجل بالإهانة يا سيدى !

واختنق صوت ثالث فى شدة الانفعال وهو يقول :

ـ وها هو الرجل الذى صنعت .. أتراه الآن الرجل الذى نشدته !

بعصبية قال القائد :

ـ ماذا تقول يا جندى ؟.. دور نفسك مكتب .

حين قالها القائد .. خيل إليه أن الصوت الخارج منه ليس له . أو أنه صوت غريب . فيه ردة وخور . ولقد كره صوته من الأعماق تلك اللحظة حتى المقت ..

بينما عاجله جندى آخر :

ـ مكتب ماذا يا فندم .. مكتب فى الصحراء ؟.. اسمع بوسعنا أن نقتلك هنا أو نسلمك للعدو .

ـ فى الحالتين أنتم قتلى معى !.. من أنتم بالضبط .. أريد أن أفهم .

ـ سنقتلك أو نسلمك للعدو .

ـ أريد أن أفهم .

ـ ليس ضروريًا أن تفهم .. فلطالما لم نفهم نحن !

ـ ألم أشرح لك ولك .. وأنت وأنت .. وأنت .. وأنت هدف العملية ؟

ـ سنقتلك أو نسلمك للعدو .

ـ إن قتلتمونى فقدتم الخرائط التى بها ستعودون ، وإن سلمتمونى للعدو ضمنت لكم العار طول العمر .

ـ الخرائط معك ، سنأخذها من الجثة .

ـ لنتعقل ..

ـ ولو ..

ـ العقل .. العقل .. يا جماعة .

ـ ولو ..

ـ يمكننى التجاوز عما وقع .. بل يمكننى نسيانه وسأغفر حق الوطن بشرط أن نمضى كلنا لملاقاة العدو .

ـ لا تتحدث عن الوطن ، إنه وطنك الذى تراه أنت فقط .. اذهب .. للعدو وحدك .

بنفاذ صبر وحيلة قال :

ـ إما أن ننفذ المهمة الآن وفورًا أو نحاكم جميعًا عند العودة .. ثم لا تنسوا أن الهليكوبتر ستعود إلينا بعد قليل فكيف سيكون حالنا .. هل نقول لقادتنا إننا ذهبنا فلم نجد العدو ؟ أم نقول ذهبنا للقتال فلم يرق لنا أن نقاتله الساعة ؟!

صاح أحد الجنود .

ـ أريد أجازة .. أمى وحشتنى !

وقال ثان .

ـ حبستنى الشهر الماضى بدون وجه حق .. وكنت فرحان بالـ ٢٤ ساعة أجازة وتهيأت للقاء خطيبتى ولعلها الآن أنجبت بعد غلطتنا البشعة !

وغضب آخر وهو يقول :

ـ وانت صفعتنى وسكبت الماء فى الرمل بينما لسانى مدلدل كالكلب ، لقد سقيت الرمل الجماد ولم تسق البشى آدم يا افندم .

وعاتبه رابع .. بأدب :

ـ وأنا رميتنى فى عز الشمس الحارقة لعشر ساعات ، عقابًا لى على هش ذبابة ظلت تتراقص فوق حاجبى الأيسر ، وتزن فى أذنى اليمنى ، فتململت فتحرك إصبعى الأيسر فى قدمى اليمنى .. وما زلت أعجب يا أخى كيف تيسر لك أن تلحظ ذلك وقدمى مدفونة فى حذاء غليظ كسلحفاة .

وقال غيره :

ـ وشتمت أمى وأسأت إليها مع أنك لا تعرفها ولم تسىء إليك .

لم يعد ثمة مجال للمكابرة فى أنه يواجه الموت على أيدى قواته أو أعدائه .. فليفجر الموقف إذن .. سحب بندقيته الآلية .. وبباطن كفه لطم بقوة كعب خزينة الطلقات المترعة ، فاندفعت لتستقر فى بطن البندقية ، فما أن فعل ذلك حتى سبقه الجنود . فجرت فى ستر الليل وسكونه جلبة ميكانيكية من أثر الشد الجماعى العصبى لأجزاء الأسلحة .

وتواجه القائد مع جنده .. وباتت نذر الموت مؤكدة .. فى اللحظة التالية .. لاحت له فكرة الانسحاب كمنفذ أخير .. فاستحسنها .. فاسترد ثقته وقال بلهجة الآمر :

ـ على جميع أفراد القوة بدء الانسحاب .. العملية ألغيت أنا المسئول عن إلغائها .. أنا وحدى المسئول عما جرى .. مستعد لتحمل كافة العواقب .

ومضى يتفرس الوجوه ، مستبينًا أثر كلامه ، غير أن أحدًا لم يتحرك ، فبصوت يائس هتف :

ـ تحركوا .. سننسحب .. سنذهب للقيادة وسنقول هناك إن مزاجنا تكدر .. ولم نر ثمة ضرورة لملاقاة العدو وطرده من أرضنا . ومن المؤكد أن القيادة ستفهم الظروف والملابسات وستقدر الدواعى الإنسانية لهذا الخذلان ، وأعتقد أنها سترفع النياشين على صدورنا لأننا تمتعنا أمامها وأمام العدو ـ معًا ـ بأكبر قدر من الصراحة والشجاعة وعدم الإصرار على ارتكاب الخطأ .

غير أن جميع أفراد القوة لزموا مكانهم ، فعاد القائد يصرخ ولم يعد يتحسب لارتفاع صوته :

ـ تحركوا .. المهمة ألغيت .. سأصحح الأخطاء .. سأراجع ما فعلت .. سألغى العقوبات .. حقكم علىّ .. سنكون اخوانًا .

غير أن أحدًا لم يحرك ساكنًا .. وبدا أنهم جميعًا قد صاروا قطعًا من بهمة الليل والموقف .. وخيل إليه أن المكان والظرف مسئولان عن هذا التحول ، وفى الوقت ذاته .. مضى يرقب أعماقه وهى تندفع كسيل نحو الغضب المدمر ، فاستمسك وكظم وأخفى نبرته :

ـ إذن سأرجع أنا .

ـ لن نرجع !

ثم أخذوا يطوقونه ، حتى انكسر الطابور قسمين وصنعا دائرة .

فتساءل متعجبًا مذهولًا :

ـ أأقود أعداء أم أصدقاء ؟!

ـ تقود ضحايا .

ـ لقد علمتكم ودربتكم وربيتكم .

ـ كل واحد فينا متربى فى بيته .

ـ هل علمتكم فنون القتال الحديث لتنقلبوا على ؟

ـ عاملتنا كحيوانات .

ـ طيب .. سأريحكم .. اقتلونى .

بعد صمت طويل .. نطق الرقيب أول ثانية :

ـ سنفعل .

فراجعه القائد مدهوشًا ؛ فاستأنف الرقيب أول :

ـ بعد أن تسمع لنا .

ـ اسمع لكم ونحن جميعًا تحت رحمة نيران العدو .. أليس يجدر بنا أن نناقش وأن نسمع وأن نلهو حتى ، بعد الفراغ من المهمة التاريخية والعودة الظافرة .

ـ كلا !.. ليس أنسب من وقت يحتاج إلينا فيه القائد !

وتضاحك جندى وقال :

ـ إنها ساعة للحظ يا سيدى .. والمثل يقول ساعة الحظ لا تعوض .

يئس القائد وأسقط فى يده وسقط ذراعاه بجواره وسرى فى ساقيه خدر ، أما وجهه ففيه مرارة الدنيا ، أما صوته فمكسور مشروخ حيث قال :

ـ كما ترون .. هيا نتسامر !

(٣)

وهو فى مركز الدائرة جلسوا متحلقين .. والبنادق قائمة بين الجحور أو الركب المثنية .. تبسط الرقيب أول وبطش بآخر الحواجز بين جندى وقائده ، وقال له :

ـ احك لنا عن همك يا أخى !.. أكيد عندك هموم مثلنا .

ـ الهموم من صفات البشر ودليل آدميتهم .. عمرك سمعت بحمار مهموم ؟

فقال جندى بجدية بالغة :

ـ سمعت يا فندم .

فتساءل القائد بنظراته ، فأشار الجندى إلى جاره وقال :

ـ هذا هو .

وارتفع الضحك وكان الخيط الأزرق والخيط الأسود قد تبددا إلا قليلا .. وبعدها وقع صمت .. كأنما الجميع يبحث عن مفاتيح للكلام .. غير أن الرقيب أول كان أسبقهم فى العثور على بداية كلام ، فسأل قائده :

ـ يقال إن زوجة سيادتك شديدة عليك !

هب القائد هائجًا :

ـ احترم نفسك يا كلب .

جذبه آخر من ذراعه أن اجلس .. ثم قال :

ـ القائد غير متزوج .. ويعول .

فقال آخر :

ـ أنا زوجتى شديدة علىّ ..

فحاوره جاره بجدية مصطنعة :

ـ سمعت أنك لا تقربها إلا بتصريح خاص .

فانفجر رابع :

ـ المشكلة أن القائد لا يوافق غاليًا على هذه التصاريح .

ـ هل تعرفون أنه كان من حق القائد زمان أن تكون له الليلة الأولى ؟

ـ بجد يا وله ؟

ـ وكان العريس يقدمها له طائعًا مبسوطًا لينال الشرف والحظوة !

ـ كان نفسى أكون زمان .

ـ لنعطى عروسك ؟

ـ لا لآخذ عروستك .

ـ ما كنت لتكون إلا صعلوكًا .

ـ أنت صعلوك ابن صعلوك أبًا عن جد .

فى مرارة قال القائد :

ـ أهذا هو الحوار الذى تريدون ؟

أشعل أحدهم سيجارة وحرضه على تدخينها ، أخذها وأخذ يسحب دخانها إلى رئتيه كأنما يرد بها نفسه .

وتجاذبوا أطراف الحديث بلهجة أقل حدة .. وامتد الحوار وتشعب .. ولم يطرق أحد قضية ذات بال .. وغلب على الكلام ضحك وانفعال .. وانكشفت النفوس عن سخافة !

وهو الانكشاف الذى سبق اللحظة ذاتها التى أطرقوا فيها جميعًا ..

أطرقوا فجأة كأنما أدركوا !

تلك اللحظة التى يكتشف فيها الكبير أنه بال على نفسه بمحض إرادته .. ربما مستمتعًا بالمغامرة .. مستمتعًا بانثيال البول .. وبعد ذلك يرى غرقه فى أثره .

فسقط فوقهم وجوم هو أشبه بسهم الله .. وانكفأ كل منهم على عمقه يراجع كشف الحساب .. وجرت فى النفوس مياه نقية كثيرة .. وحلت فى القلب غصة حتى اهتزت العضلة الكبرى فيه .

ومن فوقهم .. وقبل ساعتين .. كانت مجموعة من قوات أعدائهم قد احتلت مراكز قتل ممتازة فوق الربوة .

وبعيون مملوءة بالتعب والكدر والنوم .. تبادلوا النظرات وقالوا للقائد إنهم الآن مستعدون للقتال .. فهبوا جميعًا لملاقاة العدو .

وحين جاءت الهليكوبتر بعد دقائق لم تجد أحدًا وبان موقع العملية نظيفًا ، فانقلبت عائدة وقائدها يقول فى نفسه :

ـ لعل القوة توغلت فى أعماق العدو .. لا عجب فهى أفضل ما لدينا .

★ ★ ★

ظريف وظريفة

ظريف وظريفة

تزوج ظريف بظريفة ، وكان يوم زواجهما مشهودًا فى حياتنا وحياة الأحياء المجاورة . النقت الحياة فى مصادفة نادرة فجمعت بين مخلوقين من ألطف مخلوقاتها ، فأثمرت عيشتهما عن محبة وسرور ، والحق أن حياة اللطف والظرف التى سلكاها ، وقعت منّا موقع الغبطة ليس إلا ، فلم يتجاسر أحد على أن ينفث فى الزوجين السعيدين دخان الحسد وماء نار الحقد ، لا خوفًا عليهما فحسب بل إبقاء على مصادفة تاريخية وقعت فى حينا الذى تظله المآسى !

كنا نضرب بهما المثل على روح الفداء ، وعلى ممارسة والطناش العظيم ، فهما قد استويا فى كل الصفات والتقيا فى مجمل السمات حتى رآهما الجميع يلطمان صدغ الدنيا بحذاء قديم منقوب البطن .

عاش ظريف وظريفة حياة ظريفة رغم أن كل دواعى الألم تستبد بهما !

فهما من القبح فى حال .

وهما من الفقر فى حال .

وهما من المرض فى أسوأ الأحوال .

ويكاد يكون محكومًا عليهما بعقوبة مشتركة فى هذه الحياة

الدنيا ، ولقد استقبلا مجموعة الأحكام بهمة وحيوية ، واستحثا معًا كل ما فى قدراتهما على التحدى .

دخلا حيًنا وتزوجا به ولم يثمرا طفلًا .

وكان بهما معًا ضعف فى السمع ، وكلل فى البصر ، غير أنهما انطويا على قلب واحد ، مقسوم قسمة ربانية فى صدريهما ، فما يدق هنا يدق هناك ، وما ينبض هناك حتى ينبض هنا ، ومن القلب المقسوم إلى المخ المقسوم ، امتدت كهرباء مؤلفة من وجد وفهم وشعور .

وكان ظريف موظفًا فى آخر الدرجات ما بين الساعى ورئيس السعاة ، بإحدى الشركات .

وكانت ظريفة راسبة إبتدائية ، أى أن الدخل الذى يدخل البيت هو دخل محدود لدرجة الندرة .

وطوال الوقت يضحكان .

طوال الوقت يضحكان .

يعجب الناس ويدهش الجيران فيم يضحكان إلا أن يكون بهما مس من الجن أو الجنون .

إن ظريف قبيح فقير مريض عقيم .

وظريفة قبيحة فقيرة مريضة عاقر .

توافرت فيهما على نحو تآمرى كل أسباب الشقاء ، وأنكرت عليهما على النحو ذاته كل مسببات السعادة عادة .

لابد إذن أنهما قد جاءا من العيادة النفسية ولدا بها وربيا فيها حتى إذا اكتملا هربا ، وجاءا إلى حينا ليسببا للناس شقاء فوق شقائهم ، وليضيفا أسئلة فوق أسئلتهم ، وليصيرا فى لحظات الصفوة القليلة ، ضريحًا للتعزى والتصبر .

وبأفعالهما وأسلوب حياتهما صارا مضرب الأمثال ، وكما صارت فى الناس حكاية حسن ونعيمة ، صارت سيرة ظريف وظريفة .

يصحو من نومه ، وأول شىء يفعله بعد أن تقع عيناه الكليلتان على صفحة وجهها وشعرها منكوش فوق الوسادة .. أن يضحك .

وتفتح عينيها ، وأول شىء تفعله بعد أن تقع عيناها المبربشتان على صفحة وجهه ذى الجلد الأزرق المحروق .. أن تضحك .

ليست تلك الضحكة العالية الفارغة ، ليست تلك الهبة الهوائية الخارقة لجدار الصمت . ليست تلك الضغطة المصطنعة على عضلات الصدر والحجاب الحاجز والفك والوجه .

أبدًا .. إنها ضحكة هادئة ، جميلة ، أقرب إلى الزغرودة وأقرب إلى الفرحة المقترنة باللقاء الأول ، أقرب إلى لحظة ما قبل الاحتضان ، أقرب إلى الشوق فى كمال نيرانه .

تضحك ظريفة لضحكة ظريف ، ويبادلها فتبادله ، والبيت خاو ضاو ويستفحان ويسميان بالله .. ومع البصلة والفول والرغيف الأسود المبدور بالردة والرمل ، يستهلان اليوم ، يذهب هو إلى عمله ، وتلبث هى فى البيت تكنس وترتب وتمسح وتجهز ، لا تطبخ إلا قبل موعده . وطبيخها معروف محفوظ للناس ، تعرف أن ظريفة تطبخ حين تفوح رائحة

البصل المحمر فى الزيت مع طشة الماء مع رمية مقدار الأرز . رائحة زكية لا تتبدل أبدًا إلا مرتين فى الشهر، ثلاثًا بالكثير ، حين تطبخ مرة الفول بالطماطم بالبصل ، وحين تطبخ فى الثانية البطاطس بعظام جاء بها الجزار مع نثار لحم عالق ، وحين تطبخ فى الثالثة ، المحشى المعتبر ، الذى له رائحة تسلب اللب والفؤاد من على بعد ثلاثة أربعة شوارع .

هما إذن من عشاق الأرز الأحمر المفلفل .

وهو فى الحقيقة عشق لا إضطرار وحب لا كدر ، هو تسليم جميل لا استسلام مكروه ويبوسان اليد وجهًا وظهرًا ويشكران الله .

وطوال الأكل ، يحكى لها وتحكى له .

وبهما صبر على تبادل الحكى .

فلا زهق ولا ملل ولا تأفف .

يحكى لها عن الأستاذ محروس الذى أمضى ليلته فى الشارع ، والذى ضبطته زوجته يسرق فلوسها ، فألقت له هدومه أمام الناس ، فما كان من محروس إلا أن أعلن طلاقها ، فلما طلقها ، أقسمت برأس أبيها ألا تقبل العودة إليه ، ولو ملأ الدنيا دموعًا ، غير أنه لم يملأ بالدموع الدنيا ، ولا حتى كوبًا فارغًا ، بل ترصد لها ذات ليل برأس ناصية ، ودهمها كالمصيبة ، وعاجلها برأس ثقيل ، ثم صعبت عليه ، فحملها مشجوجة الجبهة ، إلى طوارئ الإسعاف ، فخاطوا رأسها سبع غرزات ، ولما سئلت عن الفاعل ، طالعها بعينين متوسلتين ، فقالت « مجهول » ، وهكذا عادت إلى عصمته ،

وعاد إلى البيت ، ليستأنف سرقة نقودها التى ورثتها عن أب معتوه .

وظريفة تضحك وظريف ممعن فى الحكى .

وهى تضحك على طريقته فى السرد ، وفى التمثيل ، كما تضحك للمفارقة فى أفعال الرجال والنساء ، بين الحين والآخر تقول « المجنون » أو « المجنونة » ، فالتى لا تسمع كلام زوجها هى مجنونة ، والذى لا يسمع كلام زوجته هو عندها مجنون ، فالعقل عندهما هو الطاعة المتبادلة ، لأنهما لا يريان فى غيرهما أحدًا أكثر أهمية من أحدهما .

وبعد حكايته تبدأ حكايتها ، وهى تكاد لا تتغير ، بطلتها « المرأة النارش » جارتها البعيدة التى حطمت الخمسين وطمعت فى خطيب ابنتها ، لا الولد دار ولا الأب مدرك ، ولا أحد يتعذب بالفجيعة سوى البنت المسكينة .

ورغم قسوة الواقعة ، تحكيها ظريفة ، لا لتسكب المزيد من الحبر الأسود ، بل لتنزعها من السياق المؤلم ، وتخلع عليها سخرية فارقة .

وبين ليلة ضاحكة وأخرى قانعة ، اندفعت حياتهما ، بسهولة ويسر اندفعت ، بلا منغصات تقريبًا ، سوى آلام الكلى المبرحة ، وحرقة القرحة ، ووجع المفاصل ، وارتفاع الضغط ، وكلل البصر ، ومرارة الانتظار بمحطة التمنيات ، لكن الطفل لا يجىء .

وفى الأفراح مدعوان ، وفى الأتراح يهجمان ، وهما

مؤمنان بالقول الشعبى المأثور « الأفراح بالعزومات والأتراح بالهجومات » كان شأنهما فى الحزن كشأنهما فى الفرح ، غير أنهما مارسا بجهد جهيد قدرًا من الحياد ، وهكذا غاضت الابتسامة عن وجهيهما بإرادة شديدة احترامًا للموقف الحزين لكن الذين رأوهما لم يكفهم ذلك ، ورموا الزوجين بقلة الذوق وانعدام التقدير وأن لا غالى عندهما .

وبرر بعض الناس ما جرى بأنه طبع لا صنع ، وأن الظريف والظريفة لا حيلة لهما فى وجهيهما ، فهكذا خرجا إلى الدنيا ، ومن المؤكد أنهما خلقا فى ساعة صفا ، كان الكون فيها منسجمًا ، فالشمس صالحت المطر ، والريح عانقت الشجر ، والوحوش ضاجعت الخمائل ، والنفوس عطرت بسلام خاطف جميل .

وتساءل المتحذلقون من أبناء الحى عن الذى كان من الزوجين أيام ٦٧ السوداء ، ثم الذى كان يوم حرق الكويت وضرب العراق والانقلاب على جورباتشوف .

لا ينكر أحد تعبيرًا مميزًا خاصًا بتلك اللحظات ، فوجه ظريف هو ذاته فى أى يوم آخر ووجه ظريفه لم يتبدل .

فكأنهما استبدلا الدنيا بهما وكأن حدودهما معًا هى الوطن كله .

وذات يوم ماتت ظريفة .

لم يدر أحد بالخبر إلا آخر النهار .

كانت ماتت فى الصباح ، كما علمنا بعد ذلك .

ومنذ الصباح وحتى العصر ، كان ظريف جالسًا بجوار جثة ظريفة ، ماذا كان يفعل ؟

كان ينظر إليها .

وكان يبكى .. الدموع تنحدر وعضلات الوجه منبسطة ، فالذى يراه كان لا بد ، سيرميه بالجنون . حادثها طويلًا ، كما روى لنا بعد ذلك ، وقال إنه بدأ الحديث منذ لحظة لقائه بها عند بنت عمه لطيفة ، حتى اللحظة التى صحا فيها الفجرية ليلقى عليها « ضحكة » الصباح ، فبوغت بها لا تستجيب ، لا تبادله التحية ، إنما صدرت له وجهًا باليدًا خاملًا خامدًا مينًا .

سرد على الميتة شريط حياتهما .. كأنها لم تمر به وفيه .

روى عن الليالى الضاحكة الجميلة والشهور السهلة والسنين التى مرت كلمح البصر ، كلمة كلمة موقفًا بموقف لم يدع شيئًا صغيرًا دقيقًا إلا ذكر الجثة به ، ولا شيئًا كبيرًا جسيمًا إلا أعاده على ذهن الميتة .

كان يحكى لها بحرارة عسى الحرارة أن تدب فى الجسد البارد المسجى ، الذى تصلب وتخشب .

ودموعه نازلة ، وشفتاه مفترتان عن ابتسامة ، فيها دهشة وفيها جزع وفيها الفجأة ، وفيها اللاحيلة ، وفيها التسليم ، وفيها التصبر ، امتزجت فصنعت ذلك المزيج العجيب من المرارة الساخرة أو السخرية المريرة على وجهه .

وقال فى نفسه إنه سيلحق بها . بداخله يقين أنه لن يغيب عنها طويلًا ، وأن اللقاء وشيك ، وأن كلمة السر بينهما هى مواصلة مواجهة الحياة بسلاح عدم الاكتراث العظيم .

لم يسترح كثيرًا لنساء الحى ، جئن لاطمات باكيات معددات .

ولم يهتم كثيرًا بالرجال ، جاءوا يعرضون الخدمات دون جدية فى العرض .

وطوال الوقت واجه المعزين بوجه صابر يشى بالابتسام ، أن يظنوا به الجنون .

لكن يقينه لم يفارقه بأنه عائد إليها .

ولما انفض المعزون خلا إلى نفسه ، البيت الصغير الرث واسع وخواء وخلاء ، دخل غرفة النوم فوجدها ساحة شاغرة ، الفراش معبق برائحتها ، الجدران منقوشة بضحكاتها ، فتح الدولاب وتشمم ملابسها ، وضم أثرها ، ولمس الأشياء التى لمستها ، وأغمض عينيه وتخيلها ، حتى سمع صوتها بعمقه يقول ، استعد فاللقيا قريب .

ولما مدد جسمه على الفراش ، واستنشق العرق القديم من موضع رأسها التقليدى بالوسادة ، أحس أن الفراش وسيع ، فتمنى على الله لو يقبضه ، وأغمض عينيه مستدعيًا الموت .

غاص فى النوم كميت ، غير أنه استيقظ فى الصباح .

تحسس موضعها ، تحسر على فراقها ، لمس برد مكانها .

ابتسم مترحمًا عليها ، أكل حتى شبع ، ثم دخل الفراش ثانيه ، وأغمض عينيه مستدعيًا الموت ، غير أنه استيقظ فى المغرب .

ويقول الثقاة من أهل الحى إن ظريف عاش حتى استوفى الثمانين ولم تفارقه الابتسامة ، ولم يفارقه الأمل فى الموت .

★ ★ ★

الحب والسكين

الحب والسكين

النذل .. الوغد .. سميك الجلد ! صدقونى إن ما أطلقت عليه من سباب لدون ما يستحق ولأرفع منه .. بل إنه ليحط بالسباب إن اقترن به !

أهذا لسان كارهة ، حاقدة !؟ نعم هو لسان امرأة حاقدة ، فاض بها حقدها .. أقول ذلك ولا خجل .. ولدى من الشجاعة والقوة ما يكفى لأن أعلن ذلك أمام أعتى القوى .. بما فى ذلك هو ذاته !

هل تعرفون سر كراهيتى له ؟ سأقول لكم .. لقد كرهته لأنه عذبنى وأشقانى ، كان يقتلنى مليون مرة كل يوم . وكان أسلوبه متجددًا ، فما قتلنى يومًا بطريقتين متشابهتين ، وكان مغرورًا فخورًا ، صبورًا فى القتل .

ولم أكن أموت .. رغم المليون مرة كان يقتلنى فأبعث أكثر عنادًا وتشبثًا بالحياة .. ورغبة فى موته .

كنت أعيش لأموت ثم أموت لأعيش وهكذا .. وحتى الدموع التى كانت تنساب من عينى فقدت براءتها ، أنا أعرف كامرأة أن الدموع تنحدر من نهر للحزن فى القلب ثم تنفجر من العيون المنكسرة . لكن فى حالتى ـ حالتى أنا بالذات ـ كانت دموعى تخرج من العين مباشرة لم تمر على قلبى ولا سمحت لها قط ، والغريب أنه كان يقتلنى ويقول إنه مظلوم ..

قررت فى المرة الواحدة بعد المليون أن أقتله .. وأخلص الناس من شره .. قلت له الكلمة التى لا يطيق الدنيا إذا سمعها : أنا أكرهك ! وتصورت أنى قتلته فما كان منه إلا أن فتك بى قائلًا :

ـ لكنى أحبك !

ماذا أفعل لأقتله .. إنه لم يمل الكلمة ولا مل الشعور بها .

أقول له : أكرهك .

فيقول لى : أحبك !

ثم إنه يعود فيقول : وكرهك لى ذرة فى محيطات حبى !

تلقيت « بروده » بإشاحة وجهى ، متمنية أن تنهد الأرض من تحته وأن تبتلعه .

بركان هائج جائع .. كالبركان الوالغ فى عمقى ..

لكنه لا يزال أمامى بوجهه الجامد الصابر يقول لى : أحبك .

تحركت فى مكانى من الحجرة شبه المظلمة فى بيتنا شبه المظلم ولم أنطق ، قررت أمرًا فى نفسى . قررت أن أتحرر من آثار غروره وعجرفته وجموده وحبه وصبره .. استدرت إليه بكليتى وأرسلت فيه نظرة عميقة متفهمة ورسمت فى عينى خضوعًا ودنوت من صدره .. دنوت كأننى مهدرة ورفعت يدى ولمست خده .. طوقته بذراعى ، ونام رأسى على كتفه العريض ، وبيدى الأخرى غرزت سكينًا فى جنبه !

لم يخر ..

لم يمت ..

النذل .. الوغد .. سميك اللحم .. لم يمت .

ظل بمكانه .. واقفًا .. متعجرفًا مغرورًا ، صابرًا .

الألم .. ألم الموت .. يعبر عينيه فى ركضات سريعة فارة .. ويفيض وجهه بحب ومراجعة ، ويفتر فمه ليسأل فى صبر المعاتب :

ـ ولكنى أحبك .

لم أهتز .. إنى أعرف هذه الحركات .. أعرف قدرته الفائقة على أن يكون شهيدًا .. ولكم اكتويت .

قلت والقوة تأخذ بجوانحى :

ـ إنى أكرهك .. أيها القتيل .

ـ وإنى لأحبك أيتها القاتلة !

رباه !.. إنه لا يموت .. قلت وقد أفزعنى إدراكه أنى قاتلته :

ـ لم أقتلك !.. قتلت غرورك وصبرك ..

ـ لا يلتقى الضدان فىّ منذ أحببتك !

ـ أنت الوحيد من بين كل البشر الذى عذبنى صبره ، وغروره فأنت الصابر المغرور وأنت المغرور الصابر .

ـ بل إنى المحب الصابر المقتول .

ـ لكنى لم أقتلك .

ـ سكينك غارزة فى لحمى .. انظرى دمى يراق متجهًا إليك عاشقًا سكينك !

قلت مدركة الحقيقة لأول مرة :

ـ ولكن القتل لم يؤثر فيك .. إنك لم تمت .. لحمك سميك .

- حبى لك أقوى !
- غرورك سميك ..
- حبى لك أعمق .

قال لى وأنا ألمح وجهه يضيء :

- هل للمقتول أن يسأل قاتله ؟

قلت : سل ما تشاء ..

قال : لماذا قتلتنى ؟

قلت وصدرى يمتلئ بكل دهشة العالم :

- ألا تعرف ؟ يا لك من مخادع !

قال بإخلاص هزنى :

- أدفع عمرى لو عرفت .

قلت فى سخرية :

- لقد ثبت الآن أن عمرك عملة بلا رصيد !.. لماذا تريد أن تعرف ؟

قال :

- لكى أنقذك من عذابك ومن كراهيتك لى ! صدقينى إذا عرفت خلصتك منى .

قلت :

- لست أفهم ؟

قال باسمًا والسكين تقطر فى جنبه :

- ستفهمين ، فقط قولى .

قلت فى تسليم ، لنفسى ، :

- كنت دائما تعذبنى وتطارد كبريائى ، وتهدم كيانى ، وتحط من شأنى وأشعر أن فى عينيك حقارة الدنيا لى .

سألنى كأنه سمعنى :

- هل بدر منى ذلك ؟

قلت فى نفسى .. لم يحدث .. لم تقل .. لم تفعل .. إنما كان وجودك أمامى يجعلنى أشعر أنى كل ذلك .

فقلت له :

- أريد قتلك لأنك قوى .

- بل إنى لأضعف منك .. أضعف من أضعف المخلوقات .. إنه ضعف العاشق لظالمه .. وضعف المقتول أمام قاتله .

- يعجبنى أن ترانى ظالمتك .. لكن السكين لم تجد فى قتلك .. فما يجدى إذن ؟

- سأقول لك سرى .. سأقول لك سرى الذى يقتلنى .. يريحك ويريحنى .

- قل .. يا مدعى الشهادة .

وتعلقت عينى وجوارحى بفمه يقول :

- كلمة واحدة تخلصك منى .. كلمة لم ينطق بها فمك قبل دهور ..

- قل .. انطق !

- قولى أحبك !

لن أقولها .

★ ★ ★

ضربة مقصّ

ضربة مقص

كالفراشة يلف يوسف الحلاق ويدور .

حول رأس الزبون يلف ويدور ، والزبون فى الرابعة عشرة من عمره ، مراهق ، فائر ، كثيف الشعر ، كبير الرأس ، خفيف الشارب ، تحت أنف سارح طويل غليظ التبة .

يوسف بيده اليمنى المقص ، وباليسرى المشط .

المقص رفيع الشفتين ، تتناصلان فى صوت حاد خاطف له إيقاع ، يليق بقبلة الصلب على الصلب ، والمشط أبيض ؛ بل كان أبيض ، رفيع الأسنان ، وسخ المنابت ، يتنقل بين أصابع يوسف ورأس المراهق فى رشاقة وحرفنة .

الفوطة البيضاء الدمور ملفوفة حول عنق الزبون فى إهمال ، مما سمح بسقوط الشعر فى منطقة الظهر والقفا ، وأنذر بملل وأكلان .

ورأس الزبون منكفئة وقفاه عزيض مسلطح ، فانغرزت عيونه فى المسطح الأبيض المفرود على صدره وفخذيه . للحظات تضايق الصبى ، وللحظات انهمك فى متابعة خصلات الشعر الفاحم الأسود المتناثرة فى حلقات وعقد فوق الدمور الأبيض . بدا التناقض كاسحًا . الشعر ليل فاحم والقماش أبيض وناصع .

وأصابع يوسف منهمكة فى القص والجز ، وماكينة كالدودة تمضى فوق القفا تجتث منابت الشعر البرى تحت حردة القفا .

ما بين المرآة ورأس الزبون تنحصر حياة يوسف الحلاق . نصف متر أو أقل هى مساحته اليومية المقدرة له للعمل والنظر .

مهمته الأساسية فى الحياة الدنيا تقليم رءوس الآخرين . ومن التقليم تعلم الكثير .

تعلم أن هناك رءوسًا تشبه الأقدام الآدمية أو الأحذية فى أحسن الأحوال .

وتعلم أن هناك رءوسًا تشبه أكياس الذهب . رءوسًا مفلطحة عارية ، وأخرى مثقلة بالحكمة والألم .

ومن هذه إلى تلك ، يقص المقص ويدور ، يتقافز ، ويتضامّ ، ويتنافر ، غير منحاز ، بغيته ومنتهاه التسوية فى الرءوس ، أى يجعلها كلها مستوية ، آدمية ، كالحديقة المشذبة .

يلتقى يوسف بالرأس الغزيرة الشعر ، الكثيفة الظلمة ، تضج بالفتوة والعمر ، كما يلتقى بالرأس المرهقة المستكينة فوق العنق المتعضن بالهم والغم .

وما أجمل اللقاء بالرءوس المراهقة ، يقص قصًّا فى الشعر الليل ، يتساقط خصلات وعناقيد وحلقان فوق الفوطة البيضاء ، وتصير الرأس أفقًا أسود لامعًا ، عند ذاك يستقر به إحساس بالإنجاز ، وبأنه رد إلى الحضارة أحد شارديها ؛ فهو

لا يرى كمال الأبهة والنضارة إلا فى قص الشعر ، ولا يرى للرجل نظافة إلا فى اللجوء إليه والاستسلام لرقصات مقصه وقفزات مشطه ، يطارد بهما الشعر الشيطانى أينما حل !

يفرح يوسف الحلاق فرحة العيدين والمواسم حين تدخل محله رأسٌ عجرية جديدة ، فيتملكه إحساس الفنان المقبل على رسم لوحة جديدة ، ويتأهب للشعور تأهبه لعملية خطيرة ، مما يجعل الزبون يفكر فى عدم العودة إليه ثانية ، وهو ما لا يفعله عادة ، لأن النتيجة النهائية للحلاقة وما استتبعته من تعبئة فنية ، تقنعه بأن يوسف فنان ضل الطريق إلى صالونات الحلاقة .

فى هذه اللحظة بالضبط يشعر المراهق بالدوخة من أثر دوران يوسف حول رأسه كأنه مصارع ، ثم يشعر بالقرف من أثر أنفاس البصارة المتصاعدة من جوفه على وجنتيه إذ ينزع عنهما الشعر الخفيف بفتلة حادة لاسعة ، يهوى معها فم يوسف فى موجات متتالية ، يخطف فيها الشعر ، ثم يحلق بعيدًا ؛ فيهوى منتزعًا ، ثم ينقض ، ومع كل موجة ، هبة بصارة غازية ، تفغم أنف الفتى وتقرفه .

مال يتفادى الهبة الغازية القوية التى انفلتت من جوف يوسف إثر تجشئة عنيفة ، فعض المقص حافة أذنه اليمنى ، حيث كان يطارد حزمة شعر نابتة ما بين دوران الأذن والعظمة البارزة عادة خلفها .

صرخ المراهق متأففًا ورمى يوسف بنظرة أودعها حنقه ، ودفع بطنه برفق ، وقال :

ـ ريحتك بصارة يا أسطى !

تراجع يوسف معتذرًا فى آلية ، مما وشى بأنه معتاد البصارة ومعتاد الاتهام ومعتاد الاعتذار ، وحتى ثبت لديه أن البصارة أحد عوامل إبداعه الرئيسية ، إن لم يكن العامل الوحيد المؤثر فى اعتدال مزاجه وكمال فنه .

وابتعد يوسف ليعود ، وكأنه ما اعتذر ، وانقض على الرأس والوجنتين منظفًا ، مشذبًا ، ثم غمر الخدود بماء الكولونيا ؛ فاستقبلت أنف الفتى الرائحة الليمونية بترحاب ، وانفرجت أساريره ، وأدرك أن الأسطى يوسف الحلاق يعوضه عن موجات البصارة ، بدوامات من عطر الليمون العبق و « بحلقة » دونها أكبر محل فى ـ المنصورة !

وخرج الفتى وقد نقح يوسف عشرة قروش وعد ذلك إكرامًا له ، ثم دخل عليه بعد ٣٠ سنة ، وكان يوسف بموقفه ذاته من رأس زبون فى الخامسة عشرة من عمره ، شعره أسود كقطع الليل ، خداه متوردان ، بهما شعر خفيف محتاج لفتلة يوسف القوية ، وهو يتململ ، متضايق ، غير أنه مستسلم لأصابع الفنان .

والفنان نفسه صار أصلع تقريبًا ، وصار أعمى تقريبًا ، وصار أصم تقريبًا ، وصار مدمن بصارة على وجه اليقين !

فلما ناداه « الفتى العائد بعد ٣٠ سنة » أن :

ـ يا عم يوسف !

التفت العجوز إليه كأن الصوت قادم من ٣٠ سنة فاتت ، واستدار نصف استدارة والمقص بيمناه والمشط بيسراه ، والعين كليلة ، والقلب فرحان .

لم يكن فرحه بالعائد ، بل كان فى الحقيقة فرحًا مرتبطًا بعودة سنين طويلة هربت منه وهو محصور محشور فى النصف متر المقدرة له بين المرآة ورأس الزبون !

اقترب من الوجه العائد وتهلل وجهه ، وقال :

ـ كنت فين ياللى كرهت ريحة البصارة ؟

ـ لفيت كتير ورحت بلاد بعيدة ، ملقيتش زى صوابعك ومقصك يا عم يوسف !

ـ عرفت بأه مفعول البصارة ؟

ـ عرفته يا فنان .. لسه بتاكلها ؟

ـ طول ما المحل ده مفتوح .. يبقى أنا باكل بصارة !

ونظر إليه العائد مستغربًا العلاقة السببية بين مجرد الوجود على ظهر الدنيا وبين طبق بصارة يومى !

إنتبه العائد لعم يوسف وهو يدفعه برفق إلى المقعد ليقص له شعره ، وكان فرغ من الزبون المراهق بعدها بقليل .

جلس الزبون الجديد إلى المقعد ، ولاحظ أنه كما هو لم يتغير ، والمرآة لم تتغير ، والمقص لم يتغير ، فسأله :

ـ والمشط برضه ؟

ـ لأ .. المشط انكسر وضهرى انكسر وشعرى طار !

ـ ينوبك م الحب جانب يا عم يوسف .. ٥٥ سنة وانت بتقص وتجز .. مستكتر شعرك يطير انت كمان .

ـ ما انا كنت باقصه لنفسى واجزه بنفسى وفى كل مرة أزعل لأنى معرفتش أبدًا أخليه متساوى وحلو زى ما بعمله للزباين .. ياه !

وخرجت الـ « ياه » حارة مفعمة بالمفاجأة والدهش ، فالتفت إليه الزبون متسائلًا :

ـ فيه حاجة ؟!

ـ حيكون فيه إيه يعنى .. مفيش .. يظهر إنى نسيت آكل بصارة النهاردة !

ـ يعنى مفيش فن ومفيش حلاقة كويسة .. زى بعضه يا سيدى ، نستحمل النوبة دى !

لم يكن ألم يوسف مبعثه أنه لم يأكل بصارة .. الواقع أنه كذب ، واختار أن يخترع سببًا للمزاح على أن يقول الحقيقة .

الحقيقة أن يوسف أخرج آهة عنيفة ساخنة ، هى آهة ٣٠ سنة من عمره ، اختصرت فى ثانية واحدة إذ وقعت عيناه الكليلتان على رأس الزبون ، فبصرتا بوضوح كأنهما ما فقدتا بصرًا ، الشعر الذى كان فحمة قد كثر بياضه وتراجع سواده وصار كقطعة ثلج شبه معكرة ، وأن حلقاته المقصوصة تتساقط على الفوطة البيضاء ، مستسلمة ، مسترخية ، منطفئة ، فلا يكاد الحالق يميزها عن المحلوق .

لو رفع يوسف ذقن الزبون المنكفئة لرأى دمعتين حارتين تتجمعان سريعًا ، وتنزلقان فارّتين إلى الفوطة ، فتختلطان بالشعر الأبيض .

ولو رفع الزبون عينيه فى اللحظة ذاتها لرأى ذات الدمعتين متجمعتين ، تحت جفنى يوسف الثقيلين ، مهيأتين للفرار على أرض المحل التى اختلط فوقها شعر زبائن اليوم .. معظمه أبيض فى لون الثلج .

ولقد حدث ..

والتقت العيون فى لحظة إدراك ساطعة الصدق وانشق الصدر فى كل منهما بألم والتياع حارق ، وبادر الزبون بالسؤال : لكنك ترى كل يوم زبائن وتتعامل مع رءوس سوده وبيضه .. إيه اللى بكاك النهاردة ؟.. اشمعنى راسى !؟

ـ راسك غابت عنى ٣٠ سنة . شفتها سودا بعدين شفتها بيضه . مشفتش فيها الرمادى أبدًا . غيرك من الزباين بيمر على اسود ورمادى وبعدين لون الثلج ده . انت يا بنى هزمتنى فجأة . دلوقت بس حسيت إنى عجوز . كنت فاكر ان العمر بيفوت على كل زباينى إلا أنى !

★ ★ ★

مثل الحريم

مثل الحريم

مثل الحريم

من بين كل أفراد عائلتها ودائرة صديقاتها فى المدرسة التى تعمل بها وخارجها ، كانت الوحيدة التى لم تلحظ ولم تنتبه .. إلا أخيرًا .

هى الوحيدة بالقطع التى لا تزال حتى هذه اللحظة ، تدفع ثمن غفلتها وعمى عينيها وقلبها .

كلهم لاحظوا وتعجبوا وتوقعوا ؛ فلم يبدر منها أى رد فعل ؛ فسكتوا ، وظنوا أنها مدركة مبصرة ، وأنها راضية ، فماذا يفيد تكسير اختيارها أو دماغها الناشف .

وكان خطيبها ـ فى ذلك الوقت ـ مناسبًا ويصعب فى الحقيقة رفضه ، فليس فيه عيب . رجل شريف . سجله نظيف . مركزه مرموق ، فهو نائب مدير أحد البنوك الاستثمارية ، وعنده ميراث عريض منتظر . أما شكله فمناسب . شكل أى رجل عادى .

لولا فقط أن فيه من صفات النساء .

فقط فيه من صفات النساء الكثير .

لم تلحظ أبدًا وهو يبثها الحب والهيام ، فى فترة التمثيل المشترك والسعادة الطارئة أن حركة يديه تذكرها بحركة يدى شقيقتها الصغرى !

يستعمل يده بالطريقة ذاتها التى تلوح بها أختها ، يخبط بها على صدره حين يريد التعبير عن صدمته أو دهشته ، أو حين يريد أن يقول لها مستنكرًا : كده برضه ؟!

ويقلب الراحتين فى حركة موْجية ناعمة متناغمة كأنه موسيقار مع حرص شديد على أن تبدو الحركة وكأنها غوص فى شىء ناعم وثير وطول الوقت يهز الكتفين العاليين ويرفع منهما حتى لتسقط العنق فيما فرغ بينهما !

ومع الأيام ، كشف عن حركات عضلية عصبية أخرى !

فهو يستعمل عينيه « بغزارة » ليس فقط العيون ، الحواجب أيضًا ، لم يبلغ فى تحريكها مبلغ النساء . غير أنه يقرن نظرة العين بحركة الحاجب بتلويحة الكفوف ، ليرسم صورة مؤكدة عن رجل فيه قدر كبير من صفات النساء ، نشأ فى أسرة كلها بنات ، لم يختلط فى حياته إلا بأمه وإخوته وكتبه وكراساته ومدرسته وفقط !

فى إحدى المرات .. النادرة لاحظته .

كان ذلك سريعًا خاطفًا .

لاحظت حركة يديه وعينيه ولفظًا من ألفاظه !

وقع فى قلبها خوف واهتز كيانها وأحست للحظة بضياع ، غير أن هذا كله تبدد لأنها لم تر منه بعد ذلك إلا كل كرم وشهامة ورجولة وحب حتى لم تعد ترى منه أو فيه عيبًا .

كانت صديقاتها وبنات خالتها يتهامسن :

- انظرى ماذا يقول ؟ هل لاحظت قولته « إيه ياختى ده » !؟

وكان إذا عبَّر عن غضب هائل فى صدره صاح فيها برقة : إوعى كده !

لكنه كان إذا رق وهام ، همس إليها « أحبك » كأرق ما يكون الهمس وكأبلغ ما يكون الهيام .

فلذلك حق لها أن تولع به وتشغف .

من صفاته أيضًا التى أثارت ضده مشاعر متباينة أنه ناقل جيد للكلام !

أى كلمة يسمعها من أمها أو أختها أو أبيها ضد أى واحد منهم كان يعيد بثها بالحرف !

والحق - ولكى لا يظلم - فإنه ليست فيه عادة « الإضافة » المرذولة ، لكن ليست فيه أيضًا عادة الحذف !

- أبوك قال عنك أمس أنك بخيل جبان تخشى زوجتك وتتقبل منها إهانات على أمك ، وقرر لذلك أن يحرمك من الميراث ، وبالفعل أعد وصيته وذهبت بها أنا نفسى إلى محام صديق .

ويصغى الأخ الأكبر إلى هذه « البرقية » فيهرع إلى أبيه ويجادله فيحتدم الجدل ، ويقر الأب بما فعل وينظر إلى زوج ابنته ناقل الكلام وهو يتميز غيظًا ، ويكاد يشتبك الأب وإبنه لولا تدخل الأم الحاسم بكلمة زجر « للأفندى المحترم الذى ينقل الكلام مثل الحريم » !

ولقد صار اسمه بعدها الأستاذ « وكالة أنباء » !

وفى مبالغة أخرى وصفه البعض بـ « الخط الساخن » ، وفى وصف ثالث أنه الرجل الذى لا يبل « الفوله » فى فمه ! فما يدخل يخرج وما يخرج يعود ليحبسه حتى يلفظه ، وتعجب الجميع كيف له بهذه القدرة الغريبة على النقل والتوزيع ، ومن أين له البال الصافى والوقت الممتد وماذا ترك حقًا لزوجته ؟!

ولم تفلح كل محاولات الزجر والتهديد .

وصدقتهم جميعًا .. وباتت ترى عيوبه . غير أنها عيوب صغيرة ! وكانت تدافع عنه بأنه ساذج ، وبرىء ، ونيته سليمة وأنه يعيش فى مرحلة متقدمة على عصره أو أنه :

ـ يا جماعة .. زوجى جاء قبل موعده ! إنه فى الزمان الخطأ والناس الخطأ ، لماذا تضمرون الحقد ضد بعضكم إنه لا يطيق كتم سرّ ضد أحد ومن رأيه أن إبلاغكم بالحقيقة يساعد على مواجهة الخطأ قبل وقوعه . أفرأيتم كيف تدارك أبى الوصية الملعونة التى كادت تشعل الحرب بيننا وأمر بإلغائها وصحح غلطة فاصمة . من السبب فى التصحيح ؟.. أليس هو الذى تصفونه بالخط الساخن وبوكالة الأنباء وبقلة الأدب التى..

لم نلحظ أيضًا .. إلا متأخرًا أنه يعيد ويزيد وأنه يحكى الحكاية عدة مرات وبأسلوب المضغ ، يستطعم الحرف ، ويقلبه على كل الوجوه ، ثم يلوكه ثم يرسله ، ثم يحكى الموضوع كله من الوراء للأمام بعد أن مزقه حكيًا من الأمام للوراء .

وفى يوم دخل عليها ساعة الغداء .. جلس إلى المائدة وقال لها ما يلى :

ـ اليوم يا « ختى » دعانى البيه الافندى مدير البنك وقال إيه لازم أراجع بنفسى كل الدفاتر الخاصة بالسحوبات وأقارنها بذاكرة الكمبيوتر ، ضربت يدى على صدرى وتنهدت وقلت له : عيب يا مدير أنا أيضًا نائبك وأنا أيضًا لى مركزى الذى بلغته بالتعب والعرق والعبقرية .

[يلوح براحتيه فى دائرة كاملة مع رفع الحاجب الشمال] .

وإذا كنت تحسب أننى رجل طيب القلب . إذا كنت تحسب أننى كذلك فأبدًا ، طيبتى هى التى ألقت بى فى الصفوف الخلفية ولولا طيبتى وخلقى لكان زمانى أجلس على مقعدك ومكتبك ، ولما عنيت أن أوظفك ساعيًا لى يأتينى بالقهوة . قلت له أيضًا : إنه لا يستحق مركزه وانى أفضل منه وإن الواسطة هى أمه الشرعية وأبوه غير الشرعى ، ولما هددنى بالتحقيق القانونى هددته بالتحقيق القانونى . أنا أصلًا ما كان فى ذهنى النقار . يا لهوى على ذاك الرجل ، رجل صابح يبحث عن المشاكل ، كان نفسى أمدّ صوابعيا فى مصارينه أطلع « معاميعه » . قال لازم أراجع السحوبات قال . إنى لا أقبل أن يعمل مثله عندى ساعيًا فى البوفيه يأتينى بالقهوة . يشخط فى وينطر أنا الذى لم يشخط فى أحد وكنت أطلب الطلب فى البيت قبل الزواج وقبل الوظيفة فتجرى ٥ ستات أمى واخواتى البنات الأربعة تأتى لى به . كنت أطلب الشاى الواحد فيأتين لى بـ ٥ شاى .

ويستمر هذا الفاصل من بعد الظهر حتى صباح اليوم التالى وعلى فترات متقطعة مع تكرارات إحصائية قياسية يحار فى حسابها أى كمبيوتر يتعامل مع رجل .. فيه قدر كبير من صفات النساء .

لما رأت .. لما تأكدت .. لما صدقت ما كانوا يقولونه لها .. كانت الفأس قد « شجت » الرأس . وكان حولها خمسة : أربع بنات وولد .

ذات يوم جاءها الولد يشكو أن أخته الكبرى ضربته وأخذت منه الكرة فطيبت خاطره وقالت له :

ـ انت الصغير .. انت الراجل .. عليك أن تتحمل .

فبكى بحرقة واحتج قائلًا :

ـ إيه يا ختى ده !

★ ★ ★

سماهر والمعيد

سماهر والمعيد

لا أدرى ماردنى ، بكل هذه القوة ، إلى تلك الأيام البعيدة ، المعبأة بالأحلام والحسرات ، الثرية بالعبث والإحباط .

غير أنى رددت .. وبعنف لا يليق بصحتى أو وحدتى . لعله ليل الشتاء الطويل الملول ، أو لعلها غيبوبة السكر ، إذ يصحو العقل إذ يحتضر ، فنبصر ما لم نكن نراه ، ونسمع ما دق على الأسماع ، ونعى بحدة ما استعصى أو استغلق !

سماهـر !

آه .. يا حرقة القلب ، وضيعة العمر !

أقسم أنه الإسم ، ثم الجسم ، بروعته وبفتنته ، هو ما أضاء نفسى هذه الليلة الثقيلة من ليالى فبراير اللعين ، ورد إلى الذاكرة المرهقة بالهموم والهزائم فصول تلك المأساة الداهمة التى شهدتها أروقة ومدرجات حقوق القاهرة ، قبل ثلاثين عامًا .

كانت سماهر نجمة الجامعة بلا منازع .

وفى الحقوق ، توّجناها ملكة مطلقة السلطات ، ولقد قبلت التتويج ، وقبلناه نحن الرعية ، وفرح به حتى ذهل عقله ، غريمى المعيد رمضان عبد القوى .

ليست كأية بنت . إنها مختلفة . إذا حضرت فى المكان ، أرسلت فى الحاضرين شعورًا بالسعادة ، وإن غابت ،

افتقدوها ، والتمسوها ، وأحس كل واحد أنه يعانى خللًا داخليًا ، يخاف أن يكتشفه ، حتى لا تمضغه الألسنة والعيون . بنت يكتمل بحضورها حضورك ، وينقص بغيابها كيانك ، تغمرك الفرحة إذ ترضى عنك فتبسم ، وتدفنك تلال الكآبة ، إن مر بوجهها كدر أو بعض كدر .

كانت لسماهر روح شقية ، عابثة ، ولها ضحكة رنانة مجلجلة ، والحق أنها كانت تضحك لأى شىء وعلى أى شىء ، ضحكة مصدرها الطبع لا الصنع ، وتورد يعصف بكل ملامح الوجه المشع بالمغناطيسية . وفى ظروف مثل ظروفنا نحن طلبة الأقاليم ، أو الفلاحين كما كان يروق لطلبة القاهرة أن يطلقوا علينا ، فإن روحًا بهذا القدر من التفتح والجرأة ، وفى الستينيات حيث كل شىء وكل شخص راكد محسوب الأصل والفصل ، كانت تمثل لنا نقطة جذب قاتلة .

ما من طالب أو طالبة قدر له أن يقترب من سماهر إلا انجذب !

ورغم جمال وجهها الطاغى ، فإن روحها كانت أجمل . وصحيح أنى لست من عبدة الروح ، إلا أن ما قاله ابن رشد الفيومى فيلسوف الشلة فى تلك الأيام ، كان يستحق النظر والتأمل . فقد أعلن ابن رشد على الملأ ، فوق المرج الأخضر تحت الساعة البرجية السامقة ، أن حالة سماهر هى الأولى من نوعها ، من بين ملايين البشر ، التى تكون فيها الروح أظهر من الوجه ، وأوضح من الأطراف الجوارح . ولما استوضحناه واستزدناه ، قال بحكمة الواعى الفاهم :

- اسمعوا يا قوم ! إن لكل البشر وجوهًا نراها وأرواحًا لا نراها ، إلا سماهر . فهى روح مرئية ووجه خفى !

ومن قوة تأثره ، هتف صابر عرفه من أعماق الفؤاد :

- الله يفتح عليك يا بن رشد يا فيومى !

ولقد ثمل الفيلسوف بالمديح ، فشد قامته ، وأضاف :

- لا عجب ولا لوم إذن إن قلت أنى عاشق لروحها مستعد للذوب فيها !

وأنكر أنى سخرت يومها ، وقلت :

- وأنا أموت فى روح أمها !

لعلنا كنا نقول ذلك لمجرد أن نقاوم مشاعرنا الحقيقية ، فكلنا كنا موقنين بأن قلب سماهر انفتح وانغلق على شخص واحد ، هو رمضان عبد القوى ، الذى من المؤكد أنه يتمتع برضى الوالدين !

كان رمضان يتيه علينا بما أسبغت عليه سماهر من اهتمام ؛ ففى حلقات الدرس ، كان يخصها من بين كل طلبة وطالبات الليسانس ، بالشرح والبوح ، وكأنما هى فى حضرة درس خصوصى .

تجلس سماهر فى الصف الأول ، بل فى المنتصف منه . وعن يمينها وعن شمالها ، يمتد خليط مشدود إلى درة العقد المتربعة فى جلال ، المتربصة بعينى المعيد وبقلبه .

يحمر وجه المعيد الخام .. ويدق قلبه .

والله كنا نسمع الوجيب ، أما الدم الذى كان يضرب بالوجنتين فكان فضيحة لا تستر ، أما أنا ومجموعتى فنجلس

فى الصف التالى لسماهر . أنا خلفها مباشرة ، وعن يمينى ابن رشد وعن شمالى صابر عرفه . نغلى ونفور ، نرصد بعين حارقة مفردات الحوار الخفى الممتد بين عينى المعيد وعيون الحبيبة .

اعذرونى .. إنها تحل من على حبل المشنقة .

طولها السامق ، ونحافتها المتحدية المحطمة لكل مقاييس الفترة فى الجمال ، وعيناها اللؤلؤ ، وثغرها الشقى الشهى الجارح ، ولفتة عنقها الجانبة ، ثم خطوها الواثق ، وإيقاع أطرافها المزغرد ، جميع ذلك كان نداءات وإشارات ، تلقيناها جميعًا فى آن ، لكن اختلفت معانى النداء بيننا ، فمنا من ابتغاها جسدًا حتى مزقته الرغبة ، ومنا من أرادها صاحبة لعقله تحاوره وتناظره ، ومنا من أعلن أنه لا يبغى سوى المثول عند قدميها ، حتى لو اكتفى منها بلعق الظل !

كم جردتها من ملابسها ومن سلطانها .. وكم آتيتها فلم أبلغ منها إلا مقدار ما يبلغه الشخص من نفسه !

ولا أكذب ، ولا يصح لمن هو مشرف على الخمسين أو بعدها ، إن قلت أنى ما رأيت سماهر قط إلا أنثى ، لها روح مشاغبة ، ونفس نواقة ، تضاعف اللهف عليها ، وتثرى انتفاضتها .

أخذك الله . وضمك إليه . وضم القبر على أضلاعك ضمة المنتقم الجبار يا رمضان عبد القوى . أيها القروى الساذج . يا حمار الأسفار ، يا حافظ المراجع ، يا من شغلت موقعك فى الجامعة بانعزالك عن الحياة ، والغرق فى كل تافه من الكتب .

أخذك الله يا من سلبت منا جوهرة حياتنا ..

أما كانت لى حقًا مستحقًا قبلك .. فأنا أول من تعرفت عليها فى الكلية ، وأنا أول من عاونها فى حجز المكان المناسب الذى وقع منه ، بعد ذلك ، القبول بينكما ، ثم أنا أول من قدمها إلى مجتمع الطلبة . وكم دعوتها إلى سندوتشات بابا صالح ، وكم دفعت لها الحساب على الكافتيريا .. وكم .. وكم ..

لكنك خطفتها .. وسرقت قلبها .. أنت أنت يا صاحب اللسان المتعثر والعبارة اللاهثة .. الخائفة المرتجفة من مراجعة أو سؤال ، ثم ماذا كان بوسعك أن تقدم لها ، وأنت أنت تعلم ما ليس لديك ؟

يوم فرحك وزفافك .. كان يوم حزنى وظلمتى .. أسود وأسوأ الأيام فى حياة وتاريخ كل منا . نحن الذين تناوبنا حبها من كل الوجوه .

★ ★ ★

بعد امتحان الليسانس بشهرين .. ومع رسوبها المؤلم تزوج بها المعيد .

ولقد فوجئنا بالزواج ، السياحى ، السريع ، بلغة هذه الأيام ، فما تصورنا بحال أن تتم المراسم الكاملة بدون فترة تمهيد كافية ، نرتب فيها مشاعرنا ، ونعودنا على الهجر ، ونضطر على العيش بعيدًا عن جزء من تكويننا النفسى والبيولوجى .

طلبونا للتجنيد ، لكنى أعفيت لطلاق ظاهرى مفتعل بين أبوى ، وفى تلك الفترة بالضبط نعم رمضان بسماهر واستمتع ، لا لعلمى بذلك ، بل لأن هذا هو الاحتمال الأرجح ؛ فلقد صفت له الحياة معها بخلوها منا ، نحن الذين كدرنا له كل المياه ، نحن الذي عمدنا إلى تشويه صورته حيثما حل أو حط .

ولقد تقطعت بنا السبل ، وانقطعت عنا الأخبار ، وانفرط عقد الشلة ، ولم يعد يربط بينها على البعد ، سوى موج من الشوق الهادئ ، يهفو ثم يمضى محملًا بزفرة يائسة أو متطلعة إلى لقيا ترتبها الصدفة .

آخر ما كنت أتمنى أن ترتبه لى الأقدار .. أن أعثر بغريمى وخصيمى ، أن يضمنى ابن عبد القوى ، أن أتلمس فى حضنه بعض الأثر من حبيبة القلب الغائبة .

رأيته ، إذ رأيته ، وقد قفز فى العمر سنين ، فحدثتنى نفسى بأن سماهر ذات شهوة عظيمة ، التمست منفذها فى العجل المثقف المقذوف لتوه ـ رغم ١٥ عامًا بالقاهرة ـ من جوف القبلى .

رثيت له . رثيت له .

أخذ بذراعى . أمسك به آن أفر منه . كأنما ينشد فى الإمساك بى فترة من عمره عزيزة عليه .

تم اللقاء فى جروبى ذات مساء . ولم يدم سوى دقائق .

تبادلنا فيها السلام والذى كان .. ودعانى إلى شاى ، وفى انتظار الطلبات ، أبلغنى فى حزن كاسح :

ـ طلقت سماهر .. المخطئ أنا !

يا فرحة القلب الملهوف !

إنى بشر . رغم كل شئ أؤكد أنى بشر . من أجل هذا لم أحاول قط أن أقمع موجة السرور العاتية ، هلت بعمقى ، والمختطف يعلن الإفراج الرسمى عن رهينته .

حتى أبسط قواعد الذوق حطمتها ؛ فما أسرع ما انصرفت ، وقد تركته حائرًا غائرًا فى دهشته ، ولعل نظراته التى شيعنى بها حتى غيبنى الباب والزحام ، كانت حزمة من الغيظ النارى ؛ فقد نالنى منها لهب .

إلى مكتبى الحقير أقفلت عائدًا .. أفكر فى سبيل إليها . عثرت قدماى ببعض الزبائن فى انتظارى ؛ فلم أكترث ، وحاول وكيل المكتب عم فرغلى أن يلفت نظرى إلى حنق الموكلين ونفاد صبرهم ، لكن صدتده وعنفته . لا يعلم العجوز الغبى أن همى الآن منحصر فى قضيتى أنا . أنا المحكوم عليه بالإعدام إنتظارًا وكمدًا ، شنقًا وخنقًا ، ثم جاءه العفو الإلهى المطلق من حيث لم أحتسب .

لكن أين هى الآن ؟

ما أغبانى ! بل ما أشد غبائى . كان بوسعى أن أرجئ فرحتى وشماتتى حتى أظفر منه بعنوانها !

ليس يهم . سأعثر على العنوان إلى الفردوس المفقود . سيقودنى عزمى ويرشدنى قلبى .. وستأخذ بيدى أشواقى المتقدة . أنا محام . بمقدورى أن أجد ثغرة حتى لو كانت بقانون المستحيل !

هى فى البيت القديم لابد . هناك فى حارة الصناديلى ، تعيش الملكة مع أهلها ، أو لعلها لم تبرح بعد بيت الزوجية .

فى بيت الصناديلى نفى أبوها وقوع الطلاق ، ورمانى بالشك وقذف بى إلى الطريق ، وهددنى بحذائه البالى .

وقال إنه تشاءم منذ وقعت عيناه على وجهى . وقال إننى أذكره بالشيطان ، وأكد أنه يكرهنى لله فى لله !

ليس يهم .. فقد خرجت من سيل الشتائم ببضع كلمات عن العنوان إلى الجنة .

لكن .. كيف لا يعلم أبوها ، التاجر الكبير ، بواقعتى الزواج والطلاق ؟ أهو طلاق سرى بعد زواج سرى ؟ أثمة اتفاق قبل الفراق ؟ هل قطعت سماهر علاقتها بأبيها الذى طالما تغنت بحبها له ، وعطفه عليها ، وحنانه الفائض ؟

الله أعلم . بعد قليل سأعلم .

ها هو البيت . وها هو الطابق . وها هو الباب كأنما كانت بانتظارى تتهيأ لاستقبالى ، يأكلها الشوق ، هل قال لها رمضان إنه لقينى . هل علمت أنى وراءها إلى اليوم الآخر ؟

بالأحضان كادت تأخذنى . لم لا .. فأنا صديق الأيام الرائعة . وأنا كاتم الأسرار والأشواق . وأنا بعد وقبل صاحب النظرات المستقرة التى قدرت فيها الأنثى حق قدرها . بعد أن ملت من النظرات الفلسفية المتعبدة فى معابدها وكنائسها !

وقفت مدهوشًا .. مستقبلًا للحضن التالى .. لكن سمعتها تقول :

ـ أنت ؟! ماذا جاء بك ؟

ما هذا البرود بحق السموات والأرضين ؟!

ماذا صنع بك رمضان عبد القوى ؟ كيف حول سماهر ذات الروح القاهرة إلى لوح من الثلج قائم بالباب ؟ وأى استقبال هذا لصديق قديم قريب من القلب والوعد !

ـ كيف حالك يا سماهر ؟

سمعتنى أقول لها . بلهجة من يطلب الصفح ويطمع فى الدخول ، لكن جاء فى صوتها .

ـ على أسوأ حال !.. رمضان قابلك ؟

ـ بالصدفة .. قبل يومين .

ـ لم تكن صدفة .. ادخل !

كنت قد دخلت بالفعل قبل أن تأمرنى . فى الأنتريه الشيك جدًا جلست وتحدثت . قلت إنى محام يسمونه شاطر ، وقلت إنى مازلت معلق الرموش بها ، وأعلنت قدرتى على رد حقوقها بالمحاكم ، ورفعت لها الشعار السائد وقتها : بالروح بالدم أفديك يا سماهر ! وضحكت ـ كما لم تضحك منذ أيام الكلية . وافترقنا على لقاء ، تم فى مكتبى ، واستقبلتها وأنا غير مصدق أن حلمى الصعب تحقق . كنا وحدنا . وضعت أمامها كوب عصير ؛ فوضعت تحت عينى وثيقة طلاقها .

قلبت النظر فيها ثم نحيتها باحترام جانبًا ، لكن عينى سماهر أمرتنى بالعودة إلى قراءتها . قلت :

ـ عادى . هذه وثيقة طلاق تسجل حريتك ..

ـ لا .. دقق النظر .

وهى تقول التمس إصبعى إصبعها فجرى بى مس كهربى خفيف ، لم يصعقنى لكنه خدرنى .

دققت وقرأت . لقد كتب المأذون السطر التالى :

« ولا تزال سماهر بنت رشوان الصناديلى عذراء لم يبن بها ، وأن الطلاق وقع لعجز الزوج ، ولخشية الزوجة العذراء الفتنة على نفسها » وهذا لمن يهمه الأمر !

أما العبارة الأخيرة « لمن يهمه الأمر » .. فلم تكن بالطبع مكتوبة .. لكن وجدت لسانى يفلتها ، وأنا مدهوش من هذا السطر المثير !

رفعت رأسى طالبًا الإيضاح ، غير أنى ناورت وتجاوزت وسألت معلنًا تعاطفى العميق :

ـ لبثت إذن عامين فى العذاب ؟

ـ خضت من المهانة ألوانًا !

ـ وما دفعك إلى التصبر .. أكان ثمة أمل ؟

ـ واجب الزوجة المحتوم !

ـ لكن ماذا أخرك لعامين ؟

ـ فترة كافية للعلاج والتأكد .

ـ وتأكدت ؟

أطرقت وقد عصف خجل شامل بقسمات الوجه البديع ، وعلى نحو فضح شدة الارتباك ، مضت تفرك الأصابع الطويلة الوردية ، وقالت فى همس متكسر مبحوح :

ـ تأكدت . للأسف تأكدت .

ثم فرت دموعها من أسر عظيم .

ـ تأسفين لخيبة الأمل .. أم للعمر المهدر !؟

ـ أحببته . احترمته !

ـ فى نظرى أن ما وقع لا يدعو لحب ولا يحرض على احترام . لقد أعجبك منه أنه معيد !

ـ لا .. أعجبنى منه شىء لا تعرفه حتى الآن . لم تعرفوه كلكم جميعًا .. إن هذا الشخص المصمت المغلق الفج الهيئة

والمظهر كان نريًا فاحش الثراء فى المشاعر . كان مليارديرًا عُملته اليومية هى الذهب . فتحت قلبه فى فترة الاختبار المشترك ولمست الغطاء الذهبى الذى يسحب منه ويعاملنى به !

ـ واقع الحال الآن يدعو للرثاء يا صديقتى .. فالغطاء الذهبى الذى تتحدثين عنه ليس إلا غطاء حلة !.. أين الذهب الذى أسبغه عليك ..؟ أين السعادة التى أغرقك فى بحورها وأنهارها ؟ تريدين رأيى ؟.. لقد وقعت فى كمين رجل شرير . نعم . صدق ابن رشد حين وصفه بالمصمت المغلق المطوى . لم يكن سوى بضع لفائف من الصفيح ذات حظ !.. كنت أنا هناك .. لم تبرحك عيناى للحظة . لم يبرحك عقلى للحظة . أتحين الفرصة التى ستلفظينه ، فأتلقاك بين رموشى .. غير أنك لم تكونى ترين سواه .. لقد خسرت الكثير .. خسرتنى بحق .

ـ كنت أشعر بك !

ـ كنت تشعرين بى ؟.. بعذابى ؟

ـ أجل .. غير أنى لم أكن أملك لك شيئًا .

ـ الآن تملكين ؟

سكتت . السكوت الذى أحبه . قلت :

ـ هذه الوثيقة تلحق بك أذى عظيمًا .

ـ الوثيقة تقول إنى عذراء . بعد عامين مازلت عذراء .

ـ وتفضح طليقك أيضًا .. تقول إنه ليس رجلًا ؟

ـ تقطع ـ فوق هذا ـ بأنى بكر ! تحمينى من الألسنة .

ـ نعم .. هى فى الواقع شهادة صلاحية !!

ـ تتحدث عنى كعلبة العصير هذه .. لى تاريخ إنتاج .. وتاريخ فساد !

ـ أشهى علبة عصير .. لكن ما أقصد إليه هو أنك غنية عن حمل وثيقة الضمان هذه . هل تقبلين بى زوجًا ؟

ـ هل تمزح ؟.. أتخلط مأساتى باللهو ؟ أهذا جدير بصديق ؟

ـ تقبلين أم ترفضين ؟ قد علمت حبى القديم . قد علمت لهفتى إليك . صدقينى إن قلت أنى عشت أتمنى وقوع الطلاق بينكما !

ـ دعنى أفكر .. فقد فاجأتنى !

★ ★ ★

واتفقنا بعد يومين من اتصالها بى ، أن يتم الزواج فى أقرب وقت ، ورغم أشواقنا المشتركة ، ركبنى هوس بمد فترة الخطوبة السرية ، مستمتعًا بما دب فى أوصالى من قوة ، بما طرأ على من إقبال على الحياة ، مستزيدًا من حنان جارف عاصف لم أعرف له مثيلًا ، حتى حق لى أن أسأل من كان فيهما الفاحش الثراء فى الحب والمشاعر حقًا ؟

وعجبت فى نفسى كيف عجز رمضان عبد القوى عن الاستجابة ، وكيف صد كل هذه الموجات المتلاطمة من العطف والرحمة .

إن سماهر امرأة بمعنى الكلمة ، وهى منطوية على كل الوجوه المأمولة من كل النساء ، اجتمعت فيها على نحو فريد ،

عز على أن أنفقده ، جميعه دفعة واحدة ، لكنى عشت تلك الفترة وأنا أتلقى بركاته ممتنًا شاكرًا ، وأبدًا أبدًا لم يغب عنى طيلة الوقت أنى أملك عقد حيازتها ، وأنى موثقه وأنى غير مفرط فيه . من أجل هذا ، لا عجب أن شهدت معى صنوفًا من العطاء والعطف ، غريبة على نفسى ، فما عهدت بى القدرة على أن أكون نبعًا يغترف منه الآخرون . لكن هذا بحق ما جرى .

وفى يوم سألتها أن أذهب بها إلى حارة الصناديلى لننال موافقة الوالدين ، فمضت معى على كره منها ، وقالت لى لأول مرة إنها ستذهب إرضاء لمشاعرى ، لكنها تعلم النتيجة مقدمًا :

ـ فيم كل هذا الرعب ؟

ـ لا تعلم أن زواجى السابق تم بعيدًا عنهم .. عرفوا به من الصديقات ؟!

قلت إن التجاوز عما جرى يفتح الباب لمستقبل أكثر قوة وضمانًا .. صممت أن نذهب للزيارة ، وتذكرت لما كرهنى أبوها للوهلة الأولى فى المرة التى سألته فيها عن عنوانها ، فلما طرقنا الباب استقبلنا الرجل بغضب جبار ، وبدا كمن يبحث بيديه وعينيه عن أقرب حذاء أو عصا غليظة .

وخرج إخوتها الصغار ، وشيعونا بالدموع والشتائم ، استجابة لحنق الأب ، بينما تجمع أهل الحارة بين ممصمص الشفاه ، وبين راجم بالألفاظ ، يريدون لو استطاعوا أن يمزقوها من شعرها ، ويصلبوها على باب الحارة المملوكى العتيق .

قلت فى نفسى إن سماهر لا تستحق مثل هذا الأب .. ولا كان لها أن تولد فى حارة من حارات التاريخ العفنة . غير أنى تطلعت للمستقبل وكلى جسارة ، ومنيت القلب والصلع بمسرات وغموض .

خرجنا من حارة الفضائح إلى المأذون رأسًا . كلانا لم يفكر إلا فى استدراك ما وقع .

★ ★ ★

أخفقت إخفاقًا عظيمًا .

لا أدرى ماذا جرى بى أو لى .

أخفقت إخفاقًا عظيمًا .

وحل بى شعور عارم بالعار السابغ . وكلما أردت وتهيأت خذلتنى عضلاتى ، وانطويت كخرقة مبتلة ، بينما أرى من طرف العين فصولًا من المرارة تروح وتجىء بوجه حبيبتى .. ولو جئت بأغبى الأغبياء .. ولو جئت بالغباء الغبى ذاته ، ما فاته أنه يدرك ما كان يضطرم بصدر سماهر ، لذلك أحسست بالرثاء البالغ لرمضان عبد القوى ، وشعرت نحوه بنزوع هزنى ، وفى ليلة كهذه اجتمع الناس على أنها ليلة العمر ، ما تمنيت شيئًا قدر أن أراه فى النو واللحظة ، ليرى أنى وقعت حيث وقع ، فتعال يا بن عبد القوى وانظر وتأمل . إن بهذه المرأة لسحرًا . إنى أعلم أن بها سحرًا . بل بها اللعنة . ولقد حلت لعنتها برجلين من خيرة الرجال ! تجذبك تجذبك . تأسرك . تسجنك . فإذا دنوت فأنت فى خزى كبير .

الحق أنها أفنت جهدها فى شد أزرى ، وكم رأيت بعينيها اتهامات بالغة القسوة إلى ذاتها ، وكانت تنفق معى من الوقت والكرامة ما كان حصاده العرق والفشل !

لم تدخر عنى محاولة .. كانت تفعل بإخلاص من يريد أن يدفع عن نفسه التهمة . كانت تريد بما تفعله وتقوله أن تقول لى إننى المسئول ، وإننى عبد القوى آخر ، وإن حظها عاثر وأباها قد دعا عليها بالزواج من امرأتين !

عشرة أيام وزادت خمسًا ، قضيناها فى قضم الأمنيات وتكرار المحاولات ، بعدها قررت العودة إلى المكتب ، على غير توقع من موكلى ، أو حتى معارفى ، قياسًا على حالة الوله والعشق السابقة .

ولم يكن فرغلى وكيل المكتب هناك ، فأمضيت بعض الوقت ، ثم قررت أن أعرض نفسى على طبيب لأطمئن . قال لى الطبيب :

ـ قم يا رجل !

طمأنتنى الكلمة ؛ فإنه يدعونى بالرجل . سمعته يقول لى :

ـ حالة نفسية . مجرد حالة نفسية . أما من الناحية العضوية فأنت سليم بكل المقاييس . لا تقلق . سأكتب لك بعض المطمئنات !

وعدت من العيادة إلى غرفة النوم رأسًا ، ومن غرفة النوم عدت إلى حال الوجوم والسهوم والذهول . إن الطبيب يقطع بسلامتى ، والتجربة تسطع بالفشل . هل أصدق الطبيب

وأكذب عينى وعينى حبيبتى الصابرة المتألمة . رفعت إليها رأسى وقلت بصوت أتلمس به الود والمعرفة :

ـ عبد القوى ؟

قالت غاضبة مكفهرة . كسحابة انفجرت رعدًا :

ـ عبد القوى .. عبد القوى .. ألا تلاحظ أنه ثالثنا منذ تزوجنا ؟

ـ هل تزوجنا ؟

ـ نعم ؟

ـ لا عليك .. إنما أمازحك .. فقط أسألك .. هل عرض عبد القادر نفسه على طبيب كما فعلت أنا ؟

ـ مشكلتك غير مشكلته . يجب أن تعلم ذلك . أنت غيره تمامًا . مشكلتك هى عبد القوى . أنت خائف منه . هو بداخلك . فشله ركيك . تسلل إليك وسكنك واحتلك ، وما زلت أعانى أنا مرارة وعذاب الاحتلال .

تأملت قولها ، رأيت فيه قدرًا كبيرًا من التفهم ، وتلمستها فدنت منى ، فدنوت وقبلت خدها . ثم أمطرتها لثمات مشتاقة ، فلما هممنا تأخرت بى عزيمتى ، وخلفنى القطار على المحطة وحيدًا بائسًا .

قالت :

ـ مرة ثانية !

قلت فى يأس :

ـ لا ثانية .. ولا ثالثة .. على كل منا أن يحترم نفسه !

★ ★ ★

خرجت إلى الشارع .. الدنيا ليل . ليل بارد .

قطعت بضع خطوات . مر بى تاكسى . ركبته . انزلنى عند النيل ناحية الشيراتون . وقفت أتطلع لصفحة الماء السوداء اللامعة المضطربة . قلت حالها من حالى . بها اضطراب لكنه اضطراب القوة !

لبثت هناك بعض الوقت . لا أدرى طوله ، ثم اختلفت إلى المكتب . استقبلنى فرغلى بالتهليل . سألنى عن ذبح القطة . صرفته زاجرًا إلى مكتبه . الدمعة التى عزت على عند صفحة النيل ، حطمت قيودها وفرت الآن . كنت أسند رأسى بين راحتى ، حين انتبهت لصوت سقوط الدمعة على سطح الزجاج . عالجت الدمعة بطرف اصبعى . رحت أبلله بها ، ثم رفعت الأثر إلى شفتى وطرف لسانى . دمعتى مالحة . ساخنة . حزينة . لا .. بل مُرَّة .

سألت نفسى سؤالًا كنت أقاومه :

ـ هل تطلقها ؟ ألديك الشجاعة ؟

الجواب الذى كنت أعرفه يقينًا ، وليس هناك بعمقى غيره هو :

ـ وهل أفرط فى سماهر ؟ إن عقد زواجنا ليس كغيره . انه عقد حيازة أبدى . أما حالتى فسوف يعالجها الوقت ، أما طلب التطليق فإنى محام !

وسمعت صوتًا آخر منى يسألنى :

ـ كم من الوقت سيمر قبل أن تتحسن أو لا تتحسن ؟ عامان مثلًا ؟ زجرتنى وقلت :

ـ لست ضعيفًا . أنا قوى . أنا رجل . رجل بمعنى الكلمة .

لابد أن صوتى كان قد علا وصخب رغمًا عنى .. علا لدرجة أن وقع أقدام أخذ يقترب من الحجرة .. من ؟

ـ أنا .. رمضان يا صديقى .. رمضان عبد القوى !

رفعت بصرى المخضل بالدمع والحسرة لأتبينه .. رأيته .. إنه هو رمضان عبد القوى . وجهى الآخر . وجهى الحقيقى . نصفى المستقل القابع بى . المستوطن لعزيمتى .

ها هو قد خرج منى . واقف بلحمه وشحمه فوق رأسى ، تعلو وجهه البنى المحروق المصنوع من لحاء الباذنجان الرومى ابتسامة عميقة عريضة .

سألته بهدوء وحزن :

ـ لم صنعت بى هذا ؟

فسألنى بدوره :

ـ أعطيتها شهادة الضمان ؟.. ترى من التالى ؟

وتذكرنا فى لحظة واحدة صديقنا ابن رشد الفيومى فيلسوف الكلية .. غير أن كلانا لم ينبس بحرف .. وظل ينظر فى عينى نظرة طويلة محرضة على التأمل والتجاوز فأدركت سؤاله ، وفى لحظة حق ساطع انفجرنا ضاحكين ، حتى خفت أن يظن بنا فرغلى الجنون !

★ ★ ★

أولها وآخرها

أولها وآخرها

ما بين القاهرة والمنصورة قطار ، يقوم فى السابعة والنصف وخمس دقائق ، ويصل فى العاشرة وعشرة دقائق ، لكنه لا يفعل أبدًا بهذه الدقة .

الدرجة الثالثة من القطار هى أهم ما فيه ؛ ففيها الأغلبية من أهل بحرى ، ناس قلوبهم مفتوحة ، وصدورهم بحبوحة ، يألفون الغريب ، ويفسحون له ، لهم ألسنة غير ملتوية ، ووجوه تضج بالسماحة والعشرة ، وجمال خصت به نساؤهم .

منهم النازل فى بنها ، والراكب منها إلى طنطا ، ومنهم الراكب من طنطا ليبلغ دمياط ، ومعظمهم نازل فى المحلة والمنصورة .

وفى ليالى الشتاء الباردة تصير عربات الدرجة الثالثة عالمًا بذاته ، له قوانينه ، وفيه أصوله ، وبه سلطته العفوية المؤقتة ، طول ما القطار ماضٍ على القضبان .

من القاهرة يركب الطلاب وينحشرون ما بين الثانية والثالثة ، عائدين بعد يوم دراسى شاق .

ومن بنها يصعد باعة البرتقال واليوسفى ، يتوزعون على العربات ، فى كل عربة « قفة » كبيرة مترعة بحبات البرتقال واليوسفى ، مقطوفة بالفيونكة الخضراء من أثر بتر الفرع عن

الأم ، مغسولة ، لامعة ، والبائع بصوته المبحوح المجروح يرفع فى راحته خمس حبات كبريات مغريات ، وينادى ويلح ، يحرض القوم على الشراء ، يغالى فى السعر ، ثم لا يلبث أن يخسف به الأرض خسفًا ، فتصير الحبات الخمس أم ربع جنيه ، حبات عشرة بثلاثين قرشًا ، وتصير العشرون بنصف الجنيه ، فيهجم الناس على القفة ، يأخذون ويرمون إليه بالقروش صحيحة أو منقوصة ، وفى بضع دقائق تصير لكل راكب برتقالة مميزة ، يعالج تقشيرها بين يديه ، فيسيل زيت قشرها القليل على جوانب أصابعه ، ويختلط الزيت الطيار بعرق الأصابع ، ولا يلبث راكب أن يداعب البائع أن برتقاله « بلاستيك » فيجاوبه البائع أن أسنانه هى البلاستيك أو أنه ليس معتادًا أكل الجواهر .

ويضحك الناس كأنما يتربصون بالنكتة ليضحكوا ..

وعربات الدرجة الثالثة بلا نوافذ تقريبًا ، سقط عنها خشبها أو نزع بفعل الزمن وعوامل التعرية ، واستبدل بأجساد الركاب ـ خاصة النسوة إذ تدلف الواحدة منهن هاربة من زحام الطرقة بين المقاعد ومضايقات البغال ، إلى فسحة بين السيقان ، مستندة إلى النافذة ، تتلقى صفعات الريح القوية كلطمات عضلة دءوبة ؛ فتوفر الدفء للجالسين أمامها ، وتستقبل عوضًا عنه نظرات الامتنان .

وفى بعض الأحيان ، يصير للجسد أثر أبلغ ، مع تواتر لسعات البرد ، فتركن الركبة إلى بطن الساق الطرية ، وتغرز فيها ،

فتوسع لها البطن كالحضن ، ويصير الكل فى حال انسجام ، مع تقشير اليوسفى وقزقزة اللب ومضغ الحكايات .

فمن شدة البرد والقفقفة يتدثر الناس بأنفاس بعضهم البعض ، وبعض الأنفاس كريه مخلوط بمخلفات الثوم والبصل أو فيه خلوف من أثر الجوع طيلة النهار ، لكن بعضها الآخر مستحب ، مشتهى ، مستقطر من خلاصة جواهر التوق المستفز بجريان الحوار الخفى بين الركبة الخشنة وبطن الساق الطرية .

وكله كوم فى هذا القطار ، وجمعه المرشدى بياع المعسل كوم لوحده .

إنه اليوم حزين مقهور مفطور الفؤاد ، مطوى على لوعة وترقب .. منذ ثلاثة أيام مطوى على لوعة وترقب !

به جزع وفيه مراجعة ، وعينه معلقة طول الطريق على باب العربة لعلها تهل عليه وتأخذ مكانها بجوار الركبة الخشنة الحادة ذات العظمة المسنونة .. ركبته .

رحلته فى القطار عمرها خمسة عشرة عامًا تقريبًا ، ظل خلالها مجرد راكب ، لا يكف عن النظر ويتسلى بالرائح والغادى ، لا يهمه سوى قتل الوقت والطريق ـ حتى الثلاثة أشهر الأخيرة .

ولو جلس جمعه المرشدى وسوّد حكايات هذا القطار فى الدفاتر ، لنفدت الدفاتر قبل أن تنفد حكاياته ونوادره .

لكنه لا يقرأ ولا يكتب .. وجهله بهما لم يلغ نكاءه الفطرى ، بل إن رحلته شبه اليومية ما بين العتبة والموسكى من ناحية و « طلخا » من ناحية أخرى هى برهان ساطع على أن خبث بتوع مصر لم ينل منه ، وعلى أنه واثق بقدرته على الذهاب صباحًا والأوبة مساءً مظفرًا بأنواع المعسل المعتبر .. المخلوط بالتفاح أو الكمثرى أو العسل الأبيض !

لا يسافر جمعه كل يوم كل يوم ـ لكنه يسافر كل يومين ثلاثة وإذا حزبه الشوق سافر يوميًا ، وبذلك عد من تضاريس العربة الثالثة فى القطار وصار من آثارها الخالدة ، مثله مثل الغبار والنوافذ المحطمة والمقاعد المكسرة والضوء الأصفر المحتضر . صار الناس يختلفون عليه ، وهو ثابت فى مجلسه ، على ذات المقعد ، بذات العربة ، بجوار النافذة ذاتها ، خالية من الألواح إلا من سدابتين اثنتين بالعدد لا يزالان معلقتين بها كما تعلق سنتان طريتان فى فم مظلم لرجل عجوز !

جسمه نحيل مثل زعزوعة القصب ، ووجهه الأجرودى عار من اللحم ، وجلده مشدود على عظمتين نافرتين ، وهو جلد محروق فى لون القهوة التركى ، أما الجسد المنحول فمستور فى جلباب مقلم لم تعد منه ألوان ، لكن الذين رأوه أول مرة قبل سنوات ، قالوا إن ألوانه كانت البرتقالى والأزرق ، وأن قماشه من قماش التنجيد ، وحين سئل عن حر جسمه قال لهم ألم تجربوا برد الصيف !

وبركوب القطار لخمسة عشرة عامًا تراكمت لجمعة خبرة فنية طيبة ، فصار يحفظ السكة ، يعرف متى يسرع القطار حتى يلهث ومتى يبطئ حتى يموت ، وعند المنحنيات يقول نحن فى ملف بنها وعند الانطلاق يقول عبرنا شبرا ، أما إذا صدر عن القاطرة خوار قال إنها بسبيلها أن تربط فى طلخا !

وقبل الثلاثة أشهر الأخيرة لم تكن لهذه المعلومات والخبرات أية قيمة عملية فى حياته على الإطلاق !

كان شديد الفرح عند الانعطافات المفاجئة ، تدب الحياة بغتة فى عيونه الترابية ، ويتوهج فيهما الننى ، إذ أن الركبة ذات العظمة المسنونة قد غاصت فى اللحم الطرى .

بدأ كل شىء بالصدفة .

بالصدفة وقفت عند النافذة . وبالصدفة مد ساقه فتلامست مع باطن فخذها ، وبالصدفة اندفع القطار فى ملف ، فاندفعت كيمياء عاتية بين الجسدين فى نقطة العظام واللحم ، ولم يسحب رجله بسرعة ، ولم تبعد هى أيضًا بسرعة ، إنما جرى تدافع مقصود ، فيما يشبه الدخول الهادئ إلى عمق بحر مجهول .

والدنيا زحمة ، ولا أحد يرى ، وإن رأى فماذا يضير ، إنه عم جمعه والبيت بيته ، وكل هؤلاء الركاب دخلاء عليه أو ضيوف فى أحسن الأحوال ، ثم إن أحدًا لن يرتاب فى رجل بلغ الثامنة والخمسين حقًا والسبعين وجهًا ، به من البهدلة والدهولة ما يصد عنه أذى النظر والمتابعة .

ولا ريب أنه كان يدرك هذه المبررات وهو فى جلسته الأبدية ، والمرأة فى وقفتها المسترخية ، تتلقى موجات متفاعلة من المشاعر ، بإحساس الممتن .

أبدًا أبدًا لم يقل لها تعالى إلى بيتى ، خوف الفضيحة ، فالبلدة الصغيرة شقة واحدة كبيرة ، وإن دخل بها غرفة نومه المعبأة بالمعسل ، مر ولا بد على خمسين أو ستين رجلًا وامرأة ليس فيهم إلا من شهد بنقاء ثوبه وبصم على طهارة ذيله .

ولم يدعها إلى لوكاندة فى العتبة أو الموسكى لأن قلبه خفيف لا يقوى على المغامرات ..

وطرأ له ذات يوم أن يدخل بها السينما لولا أن هيأت له الصدفة حوارًا بين جندى راجع من أجازة وجندى مسافر فى أجازة ، حكى فيه الراجع عن علقة ساخنة تلقاها من مخبر وهو يضع ذراعه حول خصر فتاته فى الصف الأخير من سينما بالمحلة !

كان الجندى يحكى وهو يضحك حتى اغرورقت عيناه وهو يروى كيف سلط المخبر كشافه الساطع على وجهيهما حتى أحرقهما الخجل وحتى صرفه بسيجارة !

لكن فيم قلة القيمة وما سيجرى هناك يجرى هنا فى القطار ، والنتيجة واحدة ، والإحساس واحد ؟

حسبه من القطار ورحلته شبه اليومية تلك المتعة الممتدة ، المكثفة أو المتقطعة ، متعة مسروقة ، وأحلى ما فيها أنها مسروقة تحت بصر الآخرين ، بينهم الذى يرى ويدير وجهه .

مشمئزًا متوقعًا القيامة الآن ، أو الذى يرى فيحدق ليتأكد ، أو الذى يرى فيمضى فى المتابعة حتى يتهدل فم جمعه مع لحظة الإضاءة والتنوير .

أجمل ما فى علاقة القطار هو حرص المرأة المستميت على الحضور ، فلم تتخلف يومًا طيلة الشهور الثلاثة الأخيرة .. إلا اليوم وأمس وقبل الأمس !

كأنما تمضى فى إثره ، كأنما تعرف جدوله ، متفرغة لحسابه ومقطوعه لرحلاته .. كأنما اكتشفت فى جمعه وحده مالم تخبره فى رجال العالم .

كانت « محفوظه » تركب من المنصورة وتنزل فى القاهرة ، ثم تعود فى القطار ذاته إلى المنصورة . رحلة شبه يومية ، لم يعرف جمعه سرها غير أنه سمعها مرة تمسح عرقها وسط الزحام ـ رغم البرد ـ وتهتف داعية على ابنتها نجية التى بهدلتها فى البلاد .

ومحفوظة امرأة جميلة بحق . لها لحم أبيض سخى البياض ، شاهق خاطف ، لمحه جمعه فى ثانية إذ كشفت عن صفحة الصدر ، إذ كشحت الطرحة السوداء المدندشة إلى وراء كتفها ، إذ فسخت الزرار العلوى ، إذ دست كفها الصغيرة البضة فاستردتها بمنديل معقود باستك إلى حمالة قميصها الداخلى ، أنشبت فيه أسنانها حتى استخلصت التذكرة من تلافيف السرة وقدمتها إلى الكمسارى الذى ضاق صدره بكل هذه الإجراءات .

ضاق صدر الكمسارى وانشرح صدر جمعه إذ شاهد الخيط الأبيض من الخيط الأسود ثم راح يعاين الجسد الشجرة المخبوء فى الملس الشرقاوى يكب لمعانًا وضياءً ، يتكسر على جغرافية سهلة منبسطة إلا من نتوءات طبيعية عمرها الجيولوجى التقريبى ٤٥ عامًا !

ومنذ ركب جمعه وعينه لم تفارق باب العربة .. الزحام هو الزحام ومكانها عند النافذة وفى مفرق ركبتيه خال كأنما محجوز لها . فأين أين هى ؟ هل مرضت فأخلفت موعده ؟ هل عادت ابنتها من القاهرة لتقيم معها .. ألم يعد ما يبرر سفرها ؟ لكنه لا يزال هو نفسه مبررًا قويًا للسفر ، بل إنها ما تسافر إلا له !

وانتبه من أفكاره على حركة رجل بدين يشق الزحام ويحتل الموقع الخالى ويسند ظهره إلى النافذة .. غير أن وجهه حل به كدر لأن الركبة المسنونة غرزت فى ساقه ، فسرعان ما تبين جمعه موضع الكدر فأزال أسبابه وهو خجلان والآخر يرمقه متفحصًا ممصمصًا الشفتين !

إن لم تهل اليوم هلك . إن لم تهل التو هلك .

القطار تجاوز ميت الغرقا ، مشرف على طلخا فالمنصورة ، فأشرفت روحه على الاحتضار .

وآلمه أن سرقت وعيه حتى فاتته محطته .. لكن ها هى ! ظهرت كأنما صعدت من عيه !

ـ أين كنت ؟ ثلاثة أيام ؟

ـ فى العربة الثانية ! قلت حرام !

ـ وأنا هنا ؟

ـ وآخرتها !

ـ أولها سفر وآخرها سفر !

ـ هيا بنا .. الناس نزلت والقطار سيدخل حوش المنصورة .

ـ القطار سيستدير إلى دمياط !

ـ لا سيدخل الحوش .. الكمسارى حذرنا هناك .

تهلل وجهه وفكر فى « الحوش » ، فقال :

ـ لنبق .

ـ يا رجل لما الفضائح ؟

وكان الركاب قد غادروا القطار تقريبًا .. ومضى المتجهون إلى دمياط يبحثون عن وسيلة أخرى .. بينما مشى القطار وئيدًا صوب « المخازن » حيث تجرى له عملية تنظيف وإعداد لرحلة الصباح التالية .

العربة خالية إلا منهما وخمسة آخرون .. الخمسة قفزوا من العربة قبل بلوغ القطار المخازن ، قاصدين وجهتهم ولم يعد بها سواهما .

وشمل المكان ظلام عميق كثيف ، ووقعت حركة وارتفعت أنفاس حارة بينما سكنت عجلات القطار تمامًا بعد أنين الفرامل .

اندفع جمعه واندفعت محفوظة ، وفى لحظة ..

فصل بينهما نور كثيف غزير ساطع من كشاف قوى بيد عامل النظافة بالحوش !

ذعر وجه جمعه ، وتجمد قلب محفوظة ، وهمس العامل أن يا ولاد الكلب ماذا تفعلان ؟!

وحين تحركت المرأة متخلصة من ذراع جمعه المستميتة ، سقطت الذراع عنها لا علاقة لها بجسم صاحبها .

دنا العامل بالنور وسلطه على وجه جمعه فرأى العينين شاخصتين بلا حياة .

تبادل النظرات مع محفوظة التى انكشف عنها كتفها ولم تكن مدركة ، وهمس :

ـ إنه عجوز !.. يا حول الله يا رب . تعالى ! .

وأطفأ الكشاف ...

★ ★ ★

مقلب الزبالة

مقلب الزبالة

طرق المعلم فتاوى تاجر المخدرات الشهير الباب الخشبى الثقيل ، فى ساعة متأخرة من الليل ، بيدين عصبيتين ، وعينين تتلفتان حولهما فى حرص .

لما فتحت له الباب قليلًا ، دفعه ودخل ؛ فارتمت فى حضنه وأوشكت عيناها على إطلاق دمعتين .

نظر إليها عميقًا وطويلًا .. وبمنتهى الحرفنة طعن قلبها بسكين أحس بنصله يخوض فى لحم الثدى الأيسر !

لم يغادر الشقة قبل أن يتأكد أنها ماتت ، وأسبل جفنيها ، ثم جلس إلى كرسى مجاور ، وجعل يتأملها فى وجوم غلب عليه ارتياح نهائى .

نزع السكين بعد فترة ودخل الحمام فى هدوء . غسل السكين ويديه ووجهه وعنقه .. وقف فوق الجثة ولا أثر فى عينيه لاكتراث .

أحس بالجوع فانقلب إلى المطبخ ، وفتح الثلاجة ؛ فوجد بداخلها نصف دجاجة وقطعة من المكرونة بالبشاميل ، أكل وشبع ثم فتح الدولاب وأخرج ملابس نظيفة .

وبعد خمس دقائق جاء بملاءة السرير ولفها فيها ثم حملها ونزل إلى الشارع وقد تمكن منه إحساس طاغ بأنه يستطيع أن يقتل أى شخص تقوده الصدفة البحتة لمشاهدته حاملًا الجثة .

من حسن الحظ أن أحدًا لم يظهر ليراه .

كانت الساعة حوالى الثالثة بعد منتصف الليل .. ليل أغسطس الحار الرطب .

الشارع خال تمامًا .. يكاد أن يكون مهجورًا لولا كلب ضال . بوزه الأسود مغموس فى قاذورات .

بثبات مضى إلى مقلب زبالة قريب وحفر بيديه عميقًا ودفن الجثة تحت الكومة .

لم يكن الحفر عميقًا بالقدر الكافى لإخفاء معالم القتيلة ، لكنه لم ينتبه إلى أن جزءًا هامًا من الجثة ظهر بعد الردم ، وكان هذا الجزء هو كفها مازال مرفوعًا كالنصب ، مشيرًا إلى مجهول فى أعلى ، أو لعله يشير إليه ويتهمه بظلم القتيلة .

غادر مكانه وتوجه إلى البيت ، وفجأة هرول مسرعًا إلى مكان الدفن فأعاد دفن الكف المرفوعة ثم جلس يبكى .

اخترقه أذان الفجر .. فارتجف ولم يتحرك إليه .

الشوارع بكر لم تفض . النسمة السارية فى الجو مرطبة بأحلام الليل الذاهب . كل شىء يوحى بالاسترخاء والاستبشار . الخلق هادئون . لم تثر عواصفهم بعد .

نفس الحال ، ولعله نفس الزمان الذى قابلها فيه أول مرة قبل ١٦ سنة كاملة .

قابلها فى الواقع عند الفجر . فلما رآها ، رآها مع الخيط

الأبيض يركب الخيط الأسود ويزيحه ، فتخيل أنها نازلة من سحابة . وقتها كان عاطلًا بلا عمل حقيقى . صحيح أنه كان يكسب بعض الجنيهات التى تكفى مصاريف خمسة أيام فقط من الشهر ، وصحيح أن ديونه لم تكن ضخمة لكنه كان سعيدًا وكان به قلب متفتح للحب .

حصل فناوى على الثانوية الفنية تخصص ميكانيكا .. وانتظر التعيين فترة طويلة .. وأثناء الانتظار عمل ببعض الورش ، ولا يعرف حتى الآن لماذا كان حظه قليلًا ، وبقشيشه شبه منعدم .

شىء ما فى وجهه وفى سحنته وفى تاريخه يمنع الزبائن من إكرامه كما يمنع أصحاب العمل من إيفائه حقه .

إنهم يأخذون منه حقهم بالثلث . وهو يعطى من عمله وعرقه وموهبته ما يجعلهم فى حالة شكر مستمر لنوعية أدائه .

والحق أنه من صغر سنه وتجربته كان موهوبًا فى إصلاح السيارات .

أعقدها سيارة لم تكن تستعصى عليه .. ولو أنصف الناس لقالوا إنه سر شهرة المصريين بالفهلوة وعلاج الماركات الجديدة فى السيارات .

ورغم الموهبة ظل حظه عنيدًا ، وصار الحصول على المال أصعب من أن يحلم به ، لذلك اكتفى بأن يعمل ولا يحلم . أن يأكل ولا يشبع . أن ينظر ولا يرى . أن يريد ولا ينال . أن يأخذ فيقنع . لا مجال للاختيار .

وقرر أن يغير الورشة التى يعمل بها لكن لم يتغير الحال ، فأيقن أنه نحس .

أيقن أن سجنته هى سجنه وأن حظه أسود ، ولعل فى تاريخه العائلى لعنة تمنع عنه التحول الذى طرأ على كل أرباب وتوابع وأصغار مهنته .

وفى أحد الأيام أحس أن باب السماء انفتح له وحده .. فقد التقى ـ قبيل لقائه بها بأسبوع ـ بصديق الدراسة الابتدائية عائدًا .

ـ منين يا محمود ؟

ـ م السعودية ـ الفلوس هناك بالقفف !

ـ إيدى على كتفك يا عم .

ـ عاوز تسافر ؟

ـ عاوز الفقر يفضل هنا وأسافر لوحدى .

ـ حالتك صعبة يا قناوى ؟

ـ فوق ما تتصور !

ـ من بكره تطلع « بازبورت » وربنا يعمل اللى فيه الخير .

ومن غد استخرج « البازبورت » وصوره ثم أعطى الصور لصديقه واحتفظ بالجواز أيامًا بين يديه وفى جيبه الخلفى .. وكلما قابل زبونًا أو معرفة أسرع يريه الجواز وقد حرص دائمًا على أن يمسح راحتيه مسحًا عنيفًا فى بنطلونه قبل أن يمسكه بيديه المتسختين شحمًا وزيوتًا .

ويجلس .. يحلم أن تمتلئ صفحات جواز السفر ببوابات دول العالم وعملاته .

فلما قابلها لم يكن فى الحقيقة يعرفها من قبل .. لكنه حسب أن السحابة الفجرية التى أطلت عليه منها هى مخصوص جاء إليه وأنه يعرف صاحبة الطلّة الندية فارتاح لرؤيتها واستقر فيه شعور عميق .. عميق بأن بينهما نهرًا قديمًا جدًا تجرى فيه سفن المحبة والشمس .

لم يكن يعرف أنها قطة ليل محترفة .

ولم يكن يعرف أنها هاربة .

هاربة من زوجها .

تزوجت وهى فى الثامنة عشرة من عمرها .. تزوجت وهى فرع أخضر ريان ، ثرية بالخيرات ، تموج بالحياة ، ولم يكن زواجها موفقًا رغم أنها بدأته راغبة فى العشرة والعيش ، وبات من المستحيل أن يستمر الزوجان فى علاقة فراش خاسرة . فالولد يعلن رجولته وفحولته بالنهار حتى إذا كان بين يديها نكس أعلامه وأطرق رجولته وأكد خسرانه .

لم تشأ أن تفضحه رغم أن بداخلها رغبة قوية فى أن تفعل ذلك .

لم تشأ رغم أن منظره كالديك المنفوش فى النهار يستفزها لتدميره .

لكنه كان طيب القلب رغم العنجهية الكاذبة ، لذلك آثرت أن تكتم سره وأن تسكت .

فلما طالبتها أمها بالحمل المفترض .. وضعت فى فمها مئة جزمة وسكتت .

فلما ألحت أمه على أن تحبل لهم بسرعة .. نزعت الفئة جزمة وفضحت المحروس أبو جلاجل وتركت لها ولابنها البيت .

الذى غضب وثار غضبة يوم القيامة .. كان أبوها الذى لم يرض أن يكون لابنته لسان الفاجرة ، فخرج عليها فى الفجر وهى نائمة فى فراشها لديه وهوى بالسكين على عنقها لولا أن حدثت حركة تقلب عابرة على جانبها الأيمن . فلما استيقظت مذعورة على السكين وقد رشقت فى الوسادة بجوار عنقها مباشرة ، ولما استيقظت مذعورة على عين الأب المنتقمتين تخترقان أمنها وتبددانه دمًا ونثارًا وعظامًا دفعته فى بطنه ـ ربما تحت قليلًا ـ بقدم عصبية فتراجع الأب إلى الوراء حتى سقط .

وأسرعت تجرى فى الشوارع .. النهار شقشق وخلق الله خرجوا لأرزاقهم . لعلها الوحيدة التى خرجت إلى المجهول . البلدة على صغرها لم تكن تكترث كثيرًا بحكايتها ـ أو هكذا بدا لها وهى تلف قميص نومها الخفيف بجسدها الشاب المرتجف خوفًا ، المبتل دموعًا .

وفقد الأب أثرها .

وفقد الزوج أثرها .

كما فقدت هى كل علاقة بها بهما ـ فالمسافة طويلة رهيبة ومخيفة بين الشرقية والشرابية ، واحتفظ زوجها بها . لم يسرحها ولم يفكر . ومضى ينتظر عودة شرفه الهارب .

ومرت ثلاثة أشهر بالضبط ، تعرفت فيها على امرأة عايقة تتجر فى الأعراض . أخذتها وعلمتها الرقص والبذل . الواقع أن البنت الهاربة كشفت عن موهبة مستورة . فلما فجرتها العايقة جرى المال بين يديها بلا حساب .

وذات فجرية كانت عائدة من شقة المحامى المشهور بوسط البلد . تغير حالها وظهرت النعمة على وجهها وصدرها وصفاء مزاجها ، فلما قابلها قناوى تلك اللحظة وسألها :

ـ تيجى نجيب اللى هناك على اللى هنا ..

لم تكترث فى الحقيقة لمقاومته ، وداعبت الموجة العابثة بإعلانها الموافقة على الارتباط به .

كلاهما كان يعرف نوعية الارتباط . مجرد علاقة رفق . لا هى فكرت فى الزواج ولا هو . تاريخهما المشترك فقرًا وفضيحة يمنعهما .

بعد أسابيع طرق عليها الباب كالمجنون :

ـ فُرجت .. أخيرًا فرجت . أنا مسافر العراق !

ـ طب نتجوز ؟

ـ أهه ؟

ـ نتجوز .. يقول نتجوز .

ـ وأنا مسافر ؟

ـ آه .. إيه المانع .

ـ دا أنا معييش ثمن التذكرة .

وتزوجا .

أنكرت أنها على ذمة آخر . ولما تم الزواج سألت نفسها لماذا ارتبطت برجل مسافر ونفرت من رجل مقيم . لعله الحمل الذى ينمو فى أحشائها . الطفل القادم بلا شرعية ، أرادت له إسمًا ومستقبلًا . لذلك لم تخبره بحملها إلا بعد أسابيع قليلة من السفر . فلما فعلت طالعها بنظرة شك رهيبة انخلع لها قلبها وسألها فى جرأة :

ـ منين ده ؟

صفعته فركلها ولطمها وطوح بها ..

وسافر .

وغاب طويلًا .

لكن سفره لم يكن إلى العراق ولا حتى اليمن ..

كان إلى الجيارة !..

على بعد ساعة أو بعض ساعة .. داخل القاهرة .

تعرف إلى تاجر مخدرات نكى ، أجرى المال بين يديه جريًا ، كما أثبت له ـ قناوى ـ قدرة بارعة على الكتمان والحيلة والتسويق ، حتى صار له ذراعه وعقله فى آن .

صار قناوى بعد سفره بثلاثة أعوام المساعد الأول للمعلم الكبير وفى العام الرابع صار تاجرًا مفردًا وصارت له شبكته .. وصار له أعوانه وكلابه وحراسه وأمواله ..

ورغم المسئوليات الضخمة لم ينسها . وبين الحين والآخر كان يتذكر أن الذى فى أحشائها ـ ربما منه !

وذات يوم دخل عليه شاب قيل له إنه من الشرقية وإنه يريد

أن يفتح فرعًا لا عنف فى الفلاحين .. وأن السوق واسعة وأنه يريد أن يحظى برضا المعلم قناوى .

كان زوجها الشاب .

كان قد عرف أن زوجته تزوجت المعلم قناوى .

وبقدر ما أراد أن ينتقم منه إلا أن رغبته فى الانتقام منها هى ، كانت أعنف : لم ينس لها أنها فضحته وشهرت به ولم يعد يرفع رأسه فى البلد .

وكلما رفع عينه فى وجه رجال البلدة حسبهم يقولون له : يا خصى !

التقى قناوى بالرجل .

وبعد حوار طويل ممل .. عرف الحكاية . رواها له بكل التفاصيل والدموع .

اتفقا على قتلها وتنازعا شرف المبادرة .. لكن إصرار قناوى كان أقوى وأشد فتراجع الزوج الأول واقتنع بوجهة نظره حين قال له :

ـ اسمع أنا المجروح أكثر منك .. تزوجتنى عليك وخدعتنى ولا بد أن أغسل الوساخة اللى على لحمى .

وألحقه بالعمل معه .. وصار له أطوع من كلب مخلص ، وأحس الزوج الأول بامتنان عميق للمعاملة الكريمة التى يلقاها من زوج زوجته !

ومع مرور الأيام والأسابيع : بدأ يتساءل عن سر تراجع المعلم وتخاذله فى قرار الذبح ، لعله يحبها ، أو لعله يراها الآن أم إبنه ؟.. أو لعلها غابت عنه ولم يعد يعرف لها مكانًا ولا يزال يجمع المعلومات عنها .

ما لم يكن الزوج الأول يعرفه بالفعل هو أن المعلم لم ينشغل عن تنفيذ قرار الانتقام إلا بالعملية الكبرى التى يخطط لها وينفذها .. عملية العمر كله .. تهريب مخدرات بـ ٢ مليون دولار داخل مصر . عملية سيصبح بعدها إمبراطور المنطقة غير المعلن .

وبحس خبيث .. كان الزوج الأول يتنصت على كل صغيرة وكبيرة مما يدور حوله فى حضرة المعلم ورجاله .

باختصار عرف موعد التسليم والتسلم .. وعرف الموقع .. عند البحر الأحمر !

أبلغ البوليس .

وصودرت الشحنة وسقط الزفر أخلص كلاب قناوى وأشرسهم .. وقد أدى سقوطه فى أيدى رجال الشرطة إلى إحساسه بألم عميق وانتابه حزن لبضعة أيام .

خلال أيام الحزن لم يغادر الزوج الأول قدمى المعلم قناوى . يقلبهما ويدلكهما ويركع عندهما .

وفى لحظة حزن عميقة اخترقه بصوت متآمر وقال :

ـ عرفت مين اللى بلغ عنك يا معلم ؟

انتفض قناوى مذعورًا مسعورًا .. ورفعه من مرقده وأمره أن يفصح .. قال الزوج :

ـ هى ، مفيش غيرها . الفاجرة !

ـ إيه ؟

ـ مين قال . وازاى .. دا أنا مبشوفهاش .. وهى عارفه أنا فين ؟

ـ هى عارفه كل أسرارك .. وعارفه عنك كل حاجة .

ـ طب وتنتقم منى ليه .. إيش عرفك ؟.. انت شفتها .. وأسقط فى يده وتردد وتراجع .. فطارده قناوى :

ـ انت شفتها .. انت رحت عندها ؟

ـ لأ . آه !

ـ يا كلب..

ـ كان لازم أرد اعتبارى .. كان لازم أعرف ليه خانتنى معاك .

ـ خانتك انت ولّا خانتنى أنا ..

ـ خانتنى أنا .. خانتنى أنا .. على الأقل الولد اللى كان فى بطنها ابن حرام !

ـ اخرس !

ـ ابن حرام .. انت اللى عملته ابن حرام .. عمرها ما نسيت لك إن جبت لها ابن من الحرام !

توقف المعلم عند الكلمة الأخيرة .. وراجع الشريط القديم ولاحت على وجهه هزيمة مفاجئة .. وأصغى تمامًا لكل ما قاله الزوج الأول بعد ذلك :

ـ علشان كده انتقمت منك .. علشان كده بلغت البوليس عنك .. وضيعت لك الزفر !

ـ بنت الكلب !.. ح اخلص عليها . انت اللى حتخلص عليها بنفسك .

ـ مقدرشى !
ـ إيه ؟.. ليه ؟
ـ بحبها .. بحبها !
ـ قوم يا مرة ..

★ ★ ★

طرق الباب الخشبى الثقيل فى ساعة متأخرة من الليل ، بيدين عصبيتين ، وعينين تتلفتان حولهما فى حرص .

لما فتحت له الباب قليلًا ، دفعه ودخل فارتمت فى حضنه وأوشكت عيناها على إطلاق دمعتين .

نظر إليها عميقًا وطويلًا .. وبمنتهى الأسى طعن قلبها بسكين أحس بنصله يخوض فى لحم الندى الأيسر ! .

.....

.....

بعد أن دفنها فى مقلب الزبالة ، بعد أن جلس يبكى .. تساءل فى مرارة : أين ابنى ؟!

★ ★ ★

علاقة الدكتور سليمان بالطالبة ناهد جميل

علاقة الدكتور سليمان
بالطالبة ناهد جميل

العلاقة السرية التى ربطت الدكتور سليمان محفوظ - ٤٥ سنة - بالبنت ناهد جميل حققت للطرفين مزايا لا حصر لها ، من وجهة نظرنا نحن الطلبة فى ذلك العهد غير البعيد .. أو كما نتصور .

كان الدكتور سليمان محفوظ أستاذًا ضليعًا فى علم الجمال ، وفيلسوفًا عظيمًا . إذا كان معنى الفلاسفة فى عصرنا هى أن ينقلوا لنا عن الغرب آراء فلاسفته ، ثم يقولون لنا هنا إنها آراؤهم !.

ولقد صدقنا فى وقت من الأوقات أن الدكتور سليمان هو « كانت » ، وفى وقت آخر قلنا إنه « ديكارت » ، وكنا نضحك ونتمازحه بيننا فى طرقات آداب القاهرة ونردد مقولته بأن التفكير العقلى السليم يقتضى أن يفرغ المرء عقله من الأفكار المسبقة ويستقبل الأفكار الجديدة دون تحيز .

وكان يضحكنا جدًا تشبيه الدكتور محفوظ للعقل البشرى بأنه « حلة » مليئة بطعام بايت تستعد لاستقبال طعام طازج . وكنا نعجب لأن الدكتور الذى يعلمنا الجمال استعمل تشبيه الحلة وهو فى رأى معظمنا من الطلاب الشطار تعبير رخيص متدنٍ لا يليق !

على أية حال ، فإننا عرفنا أن ناهد جميل لها ميل إلى الدكتور حين انبرت للدفاع عنه بلا هوادة ، فى كل المرات التى هاجمناه فيها ، وكان دفاعها يستميت بحق عندما تتطرق ملاحظاتنا إلى حذائه المكعوب وبدلته ضيقة الجاكت ، بنطلونها الشارلستون ، وكان أطرف ما يعجبنا أن نسخف بتسريحة شعره ، فقد كان يستعمل معجونًا غريبًا لتثبيت الشعر فى صفحة الرأس ، فيظل لامعًا مصقولًا طيلة اليوم الدراسى .

خلاف ذلك لم يكن لنا ثمة اعتراض على الدكتور إلا عندما وقع فى غرام البنت ناهد التى كان صديقى عبد الدايم ـ من زفتى مركز طنطا ـ واقعًا فى هواها ، يرسل فيها الشعر ، ويمضى الليالى محومًا حول طيفها ، مجنونًا بضحكتها الطفولية المزغردة ، تتقافز هنا وهناك ، مزغردة ، ولعلها أصابت بهذه الطريقة قلب الدكتور سليمان فى مرة من المرات .

ولم نعدم أبدًا أن نلاحظ أن الدكتور كان بشرًا حزينًا ، فكثيرًا ما كانت عيناه تدمعان وتلمعان بوجد إذا تحدث عن العطاء الإنسانى وعن التفانى والتضحية ، وكانت معانيه وعباراته حول هذه القيم الكبيرة تجد صدى رحيبًا فى قلوبنا باعتبار أنا كنا بعد فى فورة الشباب ومقتبل العمر . ولم نعرف أبدًا سر أحزان الدكتور ، ولا قدر لنا بأية وسيلة من الوسائل التى اتبعناها أن نعرف ومن بينها مثلًا أن أحدنا أمضى يومين

معه فى بيته يساعده فى ربط المذكرات وترتيبها وتوزيعها ، وكان شائعًا أنه متزوج ، لكن صديقنا المتطوع للمهمة لم يستطع قط أن يرى زوجة الدكتور ، بل إن الشاى والقهوة وما إلى ذلك كان الدكتور نفسه هو الذى يصنعها .

ولقد لاحظ مبعوثنا أن الدكتور حريص طوال الوقت ـ فى منزله ـ على أن يخفض صوته ، وكثيرًا ما كان زميلنا يفقد ثلاثة أرباع الجملة بسبب هذا الصوت الهامس المضغوم المرتعد قليلًا .

وكان يضطر فى أحيان كثيرة إلى قول « نعم » حيث يتوقع الدكتور أن يسمع « لا » ، والعكس طبعًا صحيح وصحيح جدًا !

المهم عاد صاحبنا إلينا ليقطع ويقسم برأس ديكارت أن الدكتور سليمان بن محفوظ بن عبد الغانم مرتبط بعلاقة سفلية مع سيدة من قوم الجن !

ولقد كدنا أن نصدقه ، لولا أن البراهين التى ساقها واحدًا بعد الآخر ، لم تغلب فى نهاية الأمر رغبتنا المخلصة فى تصديقه ، ولولا أن ناهد جميل انطلقت علينا انطلاقة النمرة دفاعًا عن عرينها ، لصدقنا أن أستاذنا مخاو .

وشيئًا فشيئًا ، وبعد تحليل عميق استعملنا فيه المنهج الديكارتى فى كافتيريا مجاورة للجامعة . انتهينا إلى أن البنت ناهد هى صاحبة الدكتور ، وأننا نكون أغبياء أولاد حرام إن لم يكن هذا هو الحق .

ولقد اجتمعنا نحن الثلاثة وقررنا رد الاعتبار لزميلنا الثالث عبد الدايم الذى سرقت منه النوم والكرامة ، وقررنا أيضًا أن نفضح الدكتور ونعصف بالبنت التى لم تراع حرمة ولم تحفظ للقلب المشبوب بها عهدًا .

والحق يقال ـ ولقد أدركت ذلك فيما بعد .. فيما بعد التخرج بـ ١٥ سنة ـ أن عبد الدايم لم يحصل منها قط على اعتراف بأنها تبادله الحب والغرام . إنما هو شوق عارم متأجج مضى فى طريق منفرد .

واخترنا وقتًا مناسبًا لنا وللدكتور ، وأنسب الأوقات للدكتور هى تلك التى تكسو فيها وجهه علامات الهزيمة . وهى علامات تظهر مرة كل أسبوع تقريبًا ، فقلنا إن خير وقت للهجوم هو وقت دورته الأسبوعية .

وللعجب فإنها جاءت قبل موعدها ، فأسرعنا نخاطبه بالتوقير والاحترام اللازمين ، ثم سألناه عما يلم به عادة بعد شرح إحدى المحاضرات عن المنهج العقلى والشك الديكارتى ، حتى إننا سخرنا من الفيلسوف الفرنسى وقلنا للدكتور إن بوسعنا الانتقام من الخواجه المجنون إذا كان « أثر » على أستاذنا .

ونحمد الله حتى الآن أن أستاذنا لم يفهم أو لعله لم ينتبه للمعنى الخبيث الذى قصدناه بلفظة « أثر » ، وإلا لعصف بنا ولجمدنا فى مادته ثلاثة أعوام على الأقل .

قال الدكتور سليمان وهو ينفث دخان غليونه متلذذًا متعاليًا :

يخيل إلى أن البناء العقلى العام للإنسان المصرى فى حالته الراهنة ، وإزاء العجز المطلق عن تحويل الهم الخاص إلى هم قومى ، هو بناء منطوٍ على خلل خلقى !

ورحنا نسأله عن طبيعة الخلل الخلقى الذى يقصده « ديكارتنا » الكبير فأجاب وأطنب ، فلما انتفخ ونشر ريشه ، قلنا ها هى الفرصة مواتية ، فقلت له : يا دكتور .. نحن نعد بحثًا متعمقًا حول علاقة المنهج الذى تشرحه لنا وتؤمن به بفلسفة ابن رشد وأعرف أنك الوحيد الذى عنده مكتبة بها أمهات الكتب حول هذا الموضوع الشائك .. فما رأى سيادتك فى زيارة .. زيارة لمنزلك .

وكأنما لدغ الدكتور فهب سائلًا : متى ؟

وعندئذ أدركنا أن الفيلسوف على موعد مع ناهد الليلة ، فى منزله ، فقلنا إن ساعة الصفر هى السابعة مساءً ، واتفقنا على مداهمة الدكتور فى تلك الساعة بالضبط ، وهى فى رأينا ساعة مناسبة أحسن الدكتور اختيارها بالنسبة للبنت ، لأنها تسمح لها بعد ساعة معه من العودة إلى بولاق دون تأخير محسوس ، وبوسعها أن تطلع أهلها إن تشددوا على الجدول اليومى موقعًا من الدكتور سليمان محفوظ أستاذ « الفلسفة والاستاطيقا » ؛ ولم يكتب علم الجمال !

كان حبيبها عبد الدايم يغلى كمدًا أو غيظًا ، ولقد اعتبر ما يفعله الدكتور أستاذ الجامعة مربى الأجيال جريمة نكراء ،

وانتهاكًا متعمدًا لعرضه الشخصى ، واستيلاء على قلب الفتاة التى شغف بها وقال فيها الشعر ، تبكى له جدران المدرج ٧٨

كنت فى الحقيقة متعاطفًا مع « أزمة » صديقى ، فقد عز علىّ أن أراه يمضى كالمجذوب ، طليق شعر الرأس والذقن كأنه هائم على وجهه منذ شهر فى شوارع القاهرة ، وكنت أتوجس من إيغاله فى البغض ، وأخشى العواقب ، فلذلك حذرته وألزمته التعقل ورحنا نقول له وصديقنا المشترك : إن نريد إلا أن نكسر أنفه ونبين زيفه ، ثم نريد ثانية أن نعرف هل ناهد هى خليلته من البشر أم من أهل العالم الآخر ، ولعلها أداته إلى فلسفتهم !

هبطنا على الدكتور فى السابعة وخمس دقائق . قلنا لا بد أنها الآن خلعت هدومها ، ولا بد أن الدكتور يمد أصابعه المرتجفة كالعادة ويلمس كتفها العارى ، ولا بد أن شفتيه الزرقاوين سنهويان عليها ولا بد .. ولا بد من ضبطهما متلبسين .

ولقد تذكرنا محنقين كيف لم يخطر على بالنا أن نكلف زميلنا ومبعوثنا سابقًا أن يطبع نسخة من مفاتيح الدكتور ولقد وبخناه إذ لم يلتفت إلى ذلك فى حينه !

لم يكن هناك بد من طرق الباب !

فتح الدكتور سليمان محفوظ الباب وعلى وجهه دهشة عظيمة ، تقترب من حد الرفض البات ، ولكنه تمالك وتراجع فدخلنا وهو يشير إلى مقاعد وثيرة فى الصالة ، تجاهلنا اشارته ودخلنا يقودنا زميلنا العارف بالشقة إلى حجرة المكتب .

كان الدكتور سليمان فى روب مشجر غريب الألوان ، كلها ألوان داكنة ، ولقد خيل إلينا فى لحظة أننا بحضرة السفاح التاريخى الشهير الكونت دراكيولا ، الذى ملأت أفلامه القاهرة فى تلك الحقبة الجميلة .

ولقد لكزت زميلى عبد الدايم وقلت بصوت خفيض : أنظر .. إنك الآن فى قلعة الكونت !

فنهرنى عبد الدايم ، وقال : أين ناهد ؟

قطع الدكتور همسنا : خيرًا .. ماذا جاء بكم الساعة ؟

فأسرعت أطمئنه : دقائق ونعود أدراجنا .. جئنا نريد المراجع ، والحق أننا كنا نمر فقلنا نزور !

- يجوز !.. لحظة وسأعود إليكم .

الذى أذهلنا أن الدكتور لم يكن مضطربًا كما توقعنا . كان مرتبكًا صحيح . لكنه ليس الارتباك الخاص برجل متلبس بمعاشرة فتاة ، ثم إنه ..

- أنظر ..!

همس عبد الدايم فى أذنى كأنما يصفر .. فنظرت . إنها ناهد . لا بد أنها ناهد !

شبح امرأة قابع على مقعد فى الغرفة المواجهة لنا مباشرة . الإضاءة هناك خافتة جدًا ، وهى إضاءة ليست حمراء أو صفراء أو زرقاء إنما هى إضاءة « سمراء » ، إن شئت الدقة !

لم يتمالك عبد الدايم أن نهض إلى هناك ، وفى اللحظة ذاتها كان الدكتور قد دخل وبيده المرجع وعلى شفتيه كلمة فهمتها بسرعة :

- هيا مصحوبين بالسلامة !

لكنه لم يقلها لأنه قال غيرها صائحًا :

ـ ماذا تفعل يا عبد الدايم عندك ؟

ـ دكتور .. هذه ناهد .. ماذا تفعل بها عندك انت ؟.. تعالوا ياجماعة انظروا .

لم يكن عبد الدايم يريد إشعال فضيحة ، بقدر ما نم نداؤه عن مدى ذعره مما رآه !

رأينا ناهد جميل البنت الشقية المتأججة حُسنًا تجلس فى قميص أسود شفيف ، مسحوبة الإرادة على كرسى أمام منضدة ، مذهولة ، لا تنظر إلى أحد .

ولقد سيطر الدكتور بسرعة على الموقف ، وطلب إلينا التزام الهدوء الكامل وإلا وقعت أعتى العواقب ، وعندئذ لن يكون مسئولًا عنها ألبته ، قال ذلك وهو يشير إلى سلة بمنتصف المنضدة .

لم نفهم ما يرمى إليه بحال ، ولعله قرأ غباءنا على وجوهنا ، لأنه أخذ سمت الأستاذ المحاضر الذى نراه بالنهار ، وأمرنا بإطاعة أوامره . ودخلنا خوف شامل من انقلاب الموقف ، وبدلًا من أن يخاف منا الدكتور صرنا نحن الخائفين . ارتعدت فرائص عبد الدايم واكتسى وجهه بتساؤلات عاصفة حلت محل الغضب والرغبة فى الانتقام ، وقبع فى مقعده كأنما يحرضه على أن يغور به ، أما أنا فاصطكت أسنانى ، وأحسست أنى بحضرة موقف جليل لم أتهيأ له ، أو أخذت إليه غرة !

اصطبغ وجه الدكتور بجلال وذهول معًا ، وزم شفتيه ورفع ذراعيه ، وكور قبضتيه ثم فردهما ثم نشر بين أصابعه ، ثم لوح مستدعيًا شيئًا فى سقف الحجرة التى تدلى منها ظلام فوق ظلام فوق ظلام .

وناهد على المقعد ، يداها مطويتان فى حجرها ، رأيتهما على الضوء الخافت القادم من حيث لا أدرى ، ولقد صار وجهها قطعة من بهمة الحجرة وجوها الغامض ، وإن ذكرنى بوجه مينة رأيتها فى بلدنا ناحية السنبلاوين

وبصوت ملحٍ يستعطف راح الدكتور يقول للمجهول :

ـ تعالى . تعالى . تعالى . تعالى . علمنى . علمنى . علمنى . علمنى .

تبادلنا الأنظار دون أن نرى بعضنا البعض . لكنها بلا شك أنظار مذهولة ، ورحنا نتابع ما يفعله الدكتور سليمان محفوظ ، وهو يرتعد :

ـ تعالى بحق المنهج !

هتف عبد الدايم :

ـ منهج ماذا ؟

ـ تعال بحق المنهج . قد جئت إليك بحبيبة فؤادك ، بالمرأة التى ردت إليك صوابك . بالقلب الذى انشطر عنك . ها هى على المقعد فى انتظارك . اقترب إذن . خذها . خذها .

فصرخ عبد الدايم :

ـ لا .. لا تأخذها . إنها ليست لك ولا له .. إنها لى ! لى . أنا وحدى .

ـ اخرس يا ولد وإلا أحدثت كارثة .

فخرس عبد الدايم فورًا .. فواصل الدكتور دعواته .

ـ تعال إنى هيأتها لك وغسلتها من أجلك .. ولقد فعلت بالضبط ما قلت لنا .. أفرغت رأسها من كل الخزعبلات ، وصار عقلها صفحة بيضاء ناصعة ، ليس فيه شىء ، حلة فارغة ؛ فتعال وأعطنى ما أستطيع أن أضعه فيها . أعطنى الدرر . أعطنى اليقين . كفانى شكًا فى كل شىء .

قلت إن الشك هو طريقى للمعرفة ، فرحت أشك وأشك حتى لم أعد أعرف إن كنت موجودًا أو أنا قطعة هيولى !.. بحق حبيبتك التى جئت إليك بها .. اظهر وبان عليك الأمان يا ديكارت يا بن الأصول ويا سليل المناهج والمدارس ، يا عبقرية زمانك وزماني وزمان القادمين .

إظهر بحق المنهج !

ووقع صمت رهيب ثقيل ، وسقطت القلوب الثلاثة فى أرجلها ، ولعل الدكتور هو الآخر كان خائفًا ، ولقد تأكد لنا خوفه وفرحه فى آن ، حين اهتزت السلة ، وفجأة جاء عبد الدايم بما لم يقع فى الحسبان ، فقد مد يده إلى الحائط وتحسس مفتاح النور فأضاء المكان بفيض غامر ، ففرت آثار الموقف وانكشف الدكتور عن وحش غاضب كاسر ، أخذ يطاردنا فى أرجاء الشقة ، نعثر بالأشياء والمقاعد والكتب

وننقلب عليها ، ثم ننهض متلمسين باب الشقة التى تحولت إلى تيه ، وكانت ناهد قد رد إليها وعيها فى اللحظة التى غمر فيها النور الغرفة ، فضبطت نفسها شبه عارية ، ولقد رأيت بياض كتفيها والساحة الناصعة ما بين عنقها ومنابت صدرها ، رأيت فى لمحة خاطفة ، لكن صرخات الدكتور حرمتنى من الاجترار ، فقد كان يقول : اخرجوا يا كلاب منكم لله .. لقد أضعتم المنهج . لقد أحرقتم اللحظة المتألقة بالعلم !

وآخر كلامه سمعناه ونحن فى بئر السلم وهو يقف برأسه على باب الشقة :

ـ ضاع المنهج يا غجر . لا نصيب لكم فى تقدم .

★ ★ ★

انقطعنا عن الدراسة ـ نحن الثلاثة ـ أيامًا أربعة .

كما انقطعنا عن اللقاء ، وحبس كل منا نفسه فى بيته وقد وقر فى قلبه وعقله أنه غير مغادر كلية الآداب إلى نهاية عمره وقدرنا أن الدكتور سيؤلب علينا زملاءه .

وفى اليوم الخامس دخل الدكتور سليمان يلقى محاضرته المعهودة ، ونحن جلوس فى آخر المدرج ، قلوبنا تلمس تراب الأرض ، وعقولنا فى حالة رعدة متصلة .

وقف الدكتور على المنصة واتكأ بمرفقيه وأرسل ناظريه فى المكان ، يتفقد شيئًا أو بشرًا .

قلنا إنه ينقب عنا أو عنها . لكن تبين أنها جالسة قبالته ، فى الصف الأمامى ، كأن شيئًا لم يكن .

ثم وقع بصره علينا .. وبان فيه اطمئنان إلى وجودنا

وانقلب الدكتور إلى السبورة يكتب :

« جذور المنهج الديكارتى » .. واستدار إلينا يشرح الجذور الحقيقية لهذه الفلسفة العقلية العظيمة وأثرها على الدكتور طه حسين والأدب العربى برمته !

وفى نهاية المحاضرة خرج الدكتور إلى مكتبه ، فأسرعت إلينا ناهد جميل وهى منشرحة الوجه تقول :

ـ الدكتور يريدنا معًا بمنزله اليوم الساعة السابعة وخمس دقائق ؛ ويوصيكم بالهدوء !

★ ★ ★

ضحك .. فمات

ضحِك .. فمات

(١)

كانت عقارب الساعة تشير إلى انتصاف الليل .. رغم الظلمة والوحشة داخلته مشاعر دافئة .. تذكر ما جرى له قبل انتصاف الليلة الصيفية .. كان معها .. كانا وحدهما . رغم الزحام والعرق والأفكار كانا وحدهما .. رغم أمطار القلق والخوف كانا وحدهما .

(٢)

تحرك فى الشقة الصغيرة حركة ملل وزهق ، هجمت موجة حارة لفت عقله فى دوامة رملية خانقة .. فتح نافذة فى الصالة المستطيلة لم تدخل منها نسمة واحدة باردة رغم الثلج فى قلبه .. لف حول نفسه .. أمسك رأسه بين راحته .. ود لو اعتصر رأسه .. مضى إلى الحمام . تطلع إلى صفحة وجهه فى المرآة أعلى الحوض .. هاله طلعته رجل لم يره من قبل .. رجل غريب له عينان ثقيلتان .. سوداوان ، بلا رموش تقريبًا ، له فم غليظ الشفاه ، غليظ البسمة . دارت راحته مع الصنبور ، تدفقت مياه فاترة فوق رأسه . لبث خمس دقائق تحت المياه . خمس دقائق بالضبط . سحبها بعد ذلك بإصرار طارئ . خرجت رأسه من تحت الصنبور على غير جسمه ..

شعر أن الرأس رأسه والجسم ليس جسمه أو شعر أن الجسم جسمه تحت رأس ليس رأسه .

دعك الفوطة فى رأسه .. وهو يدعك شعر أن فى الفوطة رأسًا غير رأسه . ظل يدعك .. يضغط حتى آلمه الضغط فأيقن أن الرأس له .

(٣)

دخل فى بنطلون رمادى دس فيه أطراف قميص كحلى ، على عجل ، وغادر الشقة حوالى الرابعة صباحًا . لم يكن يعرف إلى أين . عرف فقط أن سقف الشقة حط فوق صدره فكتم القلب . كان الشارع خاليًا إلا من نفر قليل .. رمقوه بنظرات الشك مبعثها تعثر خطواته ، مضى إلى أطراف الحى فانفردت به الظلمة والصحراء ، هناك مكث يكلم نفسه قرونًا متصلة فطلع عليه بليون نهار ودار عليه بليون ليل وهو مكانه لا يتحول .

حدق فى الأرض طويلاً ، فانفجرت الأرض عن وجهها الجميل وعن عينيها الجميلتين وعن شفتيها الطاهرتين فلم يصدق ، قرأت الرعب فى ملامح وجهه المتصلبة فأشارت بيديها وقالت :

ـ صدق ما تراه .. إنى ما تراه .

قال بلسان مرتعش :

ـ لا أصدق حتى أضمك .

قالت غاضبة :

ـ هكذا فعلت مع غيرى .

قال :

ـ لست كغيرك .

قالت :

ـ هل أختلف ؟

قال يشير بيده :

ـ أشعر أنك تختلفين .. هيا اقتربى ألمسك .

قالت :

ـ لا تستطيع أن تلمسنى .. تستطيع أن تشعر بى فقط .

استبد به الشوق فهجم عليها هجمة فجائية فاحتوى بذراعيه حزمة من ضوء .

(٤)

نهار ذلك اليوم .. كانت عقارب الساعة تؤكد الرابعة .

دخل الشقة الصغيرة وسط فوضى لم يألفها ولم يصنعها من قبل ، لا يتذكر أنه كان مهملاً أو قذرًا ، لكن ما هذه الفوضى ؟ من فعل بالشقة ومحتوياتها كل هذه العاصفة ؟.. حتى حجرة نومه وجد الفراش يحمل آثار معركة .. ثم بقعة دم صغيرة .

بعينين مذهولتين اقترب من بقعة الدم فقادته إلى جثة امرأة تحت الفراش . حين طالع وجه القتيلة عرفها على الفور .

إنها الوجه الذى خرج إليه من قلب الأرض قبلها بليلة فى الصحراء . شدها من ذراعها الممددة إلى جوارها وقد زايله الخوف .

مضى ينظر إلى الوجه يتأمله .. فتحت عينيها وابتسمت .
ابتسم وجه الميتة .
لم يخف . لم يرتجف . لم ينخلع قلبه . بادلها الابتسامة واقترب من خدها الناشف وطبع قبلة دبت على أثرها حياة فى مسام الوجه كله .
نهض الوجه واستطال العنق .

(٥)

يا رب السموات أغثنى !
إنى أكاد أجن !
أين ذهبت المرأة ؟.. لماذا تركت لى جسدها وأخذت معها وجهها ! من قتلها ؟ ومن ألقى بها فى غرفة نومى وتحت سريرى ؟..
يا رب السموات أغثنى !
الليل .. والخوف .. والأعصاب مضطربة قال فى نفسه :
ـ لابد أن أموت كى أقابلها . لابد أن أكونها كى أفهمها . إن الحى لا يفهم الميت .
يفهمه حقًا الميت أكثر !
وسأل فى نفسه :
ـ وكيف أموت ..
ومضى يعدد أدوات الموت فاختار من بينها أسهلها وقال :
ـ أسهل طريقة للموت هى التى أنا فيها . إنى ميت بالفعل ..

ورد عليه صوت من نفسه :
ـ ميت إلى درجة لا تكفى لفهم « الميتة » ! يجب أن تموت « جدًا » حتى تليق بالحديث إلى « الميتة » !
وسأل نفسه ثانية :
ـ ولكن كيف أموت « جدًا » ؟
وفكر كثيرًا حتى سكن فيه القلق .. ثلاث ليال قبل أن يهتدى للطريقة المناسبة للموت « العميق » . قام من فوره ، نظر فى المرآة . رأى ذقنًا كثيفة وشعرًا منكوشًا وعينين وخدين بارزتين فبصق !
حلق ذقنه ، رتب شعره ، قرص خدّيه ، ضحك ضحكة عميقة اهتز لها كيانه النحيف .
عندما دخل غرفة نومه نظر إلى السقف رأى نفسه يتدلى من السقف مكان المصباح !
ظل يضحك .. حتى مات !

★ ★ ★

رد شرف !

رد شـرف !

[السجن ـ العنبـر ١٧ ـ بعد منتصف الليل]

قال لصاحبه ، وهو يدارى الدمع يتخلق بعينيه المرهقتين :

ـ أما بقية القصة فمعروف للكافة ، ولك بخاصة ؛ بعد أن صرنا ، نحن أطرافها الثلاثة ، فضيحة مسجلة فى الشهر العقارى !

وها أنت ترى النهاية بين يديك يا صديق العمر ، إذ لم يتبق منى أثر من كرامة أو بناء من عزة ، ولم يعد منك ، رغم المقاومة ، ما يدل على أنك يومًا كنت مركز الجاذبية الذى دمرنا جميعًا !

هتف به صديقه أن يرحمه من الذكرى ، من العذاب الأليم ، لكن الكهل اللحوح . استأنف هجمته بلا هوادة :

ـ أتذكر يا صديقى الوغد يوم أرسلت بك لإنجاز الصلح بينى وبينها ؟ أم تراك تطوعت مدفوعًا بفورانك الداخلى ، ونواياك المبيتة ، وتوهجك الغريب ؟ الحق . لم أشك فيك أو فيها للحظة واحدة . آه !.. ذلك اليوم البعيد !.. ترى كم مر علينا هنا بمحبسنا يا صديق العمر ؟ ذلك اليوم البعيد منذ ١٨ عامًا ، قبل أن تلفظك أنت الآخر ، بعد أن ذهب عنك ماؤك وبهاؤك !

ـ ذهبت لأنجز الصلح بهمة مخلصة ، فوجدتنى فى مهب ريح عاتية ، ووجدت سطوة لا تقاوم .

بذلت المستحيل لأتذكرك فأرتدع ، فما تذكرتك فارتدعت . وكل الذى دخلنى كان محمولاً على رأس إعصار منى ومنها .. قلت أخاف الله . قالت أخافه أكثر منك . فما مسستها إلا بعد أن ألقيت عليها يمينك ، ثم صارت لى بعد العدة حلالاً سائغًا !

ـ تعرف أننى لم ألق يمينًا .. ولم أطلق كالقادرين !

ـ قالت لى إنك طلقتها . ثم إن أهلها أطلعونى على وثيقة الطلاق .

تعرف أننى لم ألق يمينًا . ولم أطلق كما يليق بالرجال .

ـ ماذا أصنع يا صاحبى ؟.. طلب القاضى شهادتى فأدليت بها ، والمتأخر عن شهادة ملعون !

ـ وسارق زوجة الصديق .. ما حكمه ؟!

ـ حكمه موكول إلى ربك !

ـ رميتنى أمام القاضى بما ليس فى !.. قلت إنك رأيتنى أضربها . وكانت هى التى تضربنى . قلت إنى أجوعها .. وكانت هى التى تحجب عنى الطعام . قلت إنى أحبس عنها مالى .. وكانت هى التى تستولى على كل مالى . قلت إنى أسبها وأشتمها .. وكانت هى التى تسب وتشتم حتى الجد العاشر !

ـ نعم .. قلت هذا كله ، ولو سألنى المزيد ما ترددت ، لكى أظفر بها !

ـ ها قد ظفرت بها يا صاحبى .. حتى صرت معى فى نهاية المطاف !

ـ كان انتقامنا مشتركًا !

ـ لكنك مخطئ بحق !.. بل إنك لأعمى إذ تعتقد حتى بعد الجريمة بـ ١٨ عامًا أننى شاركتك قتلها لكى أغسل عارى منها . الحقيقة أننى قدرت خطتى تقديرًا علميًا . قلت إنى بعد الفضيحة رجل ميت . نظرات الأهل والناس معبأة بالاستهانة والإهانة . فما جدوى العيش والرأس مغموسة فى الطين على يد صديق أدخلته بيتى وأطعمته طعامى ، وشاركته لقمته وأحلامه .. حتى من قبل أن تنبت فينا الشوارب ! قلت لنفسى إنى بحق رجل مهان مهين .. فما يجديه إن عاش أيامًا أخر ! إن الانتقام الحقيقى أن ترسل بالذى خان الصداقة إلى الهوان المطلق . فكما أنا محبوس فى الهوان المطلق ، لا بد من سجنه بذات الأسوار المدببة ، ناتئة المسامير !.. من أجل هذا عاونتك فى قتلها ! هى .. هى .. هى لم تكن تستحق بحال أن أقتلها . فبعد الخيانة لا تصير للمرأة قيمة ، ولا تساوى مجرد التفكير فيها . فبعد الخيانة تصير المرأة مجرد بصقة . لفظتها أنت أو تلقتها هى !!.. هى لم تكن تستحق أن أقتلها ، فالقتل كان سيجعل الناس يترحمون عليها ، وكانوا سيقولون عنى الزوج القاتل ، وسيقولون عنها القتيلة . الحقيقة يا صديقى أننى لم أكن مهتمًا بقتلها .

ـ أفهم .. أفهم .. فلا تعد الحكاية ألف مرة .. تأكد أننى أفهم !

ـ ولأنك تفهم أجد من المنطق والواجب أن أكرر الحكاية ألفًا أخرى .. لعلك تفهم !

ـ بذمتك .. ألم يكن من حقها الطلاق وأنت تتعامل معها بهذه العقلية الشيطانية الشاذة !؟

ـ أتسمى التفكير الحر الخلاق .. عقلية شيطانية شاذة ؟. هل رد الشرف هو شذوذ فى التفكير ؟ فما تسمى إذن الشذوذ فى الفعل ؟ أكان سويًا سليمًا ما فعلته بصديقك الذى طعمت طعامه وائتمنت على أسراره ، وكنتما معًا مضرب الأمثال فى الوفاء والبر ؟!

سأحكى لك الحكاية من الأول . سأحكى لعلك تفهم ..

أقول لك يا سيدى إننى قلت فى نفسى إن قتلها تكريم لها .. وأن الانتقام المثالى هو أن أسوق قاتلى الحقيقى إلى حيث أنا ! من أجل هذا وافقتك .. وجلست أستمع إلى شكاياتك ودموعك تهطل .. كلها ندم وذنوب !

ـ ليلة لا أنساها ـ ولو عشت حتى نهاية القرون لن أنساها .. فلقد روعتنى إذ قالت إنها تطلب الطلاق !.. لم أصدق عينى وحسبت للحظة أننى أتجرع كأسك المرة .. غير أنى طردت الإحساس العابر ، فلم يلبث أن تجسدت لى أنت ضحية لى ، وبدأت أعيد النظر حولى ، فيمن يدخل بيتى ومن يخرج منه ، وارتبت فى صديقى كما ارتبت أنت فى

ذات يوم ، غير أن دليلًا واحدًا لم يقم على تلوثه . فاحترت واستغرقت فى الحيرة ، على أنى لم أمضى وقتًا طويلًا قبل أن أعرف أنها عزفت عنى لتفاد مالى وحالى .

ـ وكان مالك قد سرقها منى ؟

ـ نعم نفد مالى وذهب حالى ، وأسفرت لها أنا عن كائن مسخ قبيح ، تطيق العمى ولا تطيقه ، وراجعت بذاكرتى ما قدمت وما أخرت فوجدتها مدينة لى بالأنفاس التى تتردد فى صدرها .. وكنت أعلم أنك ترصدنى وترصدها . لم تأت شيئًا ضدنا . فقط عيناك ترصدنا وتطاردنا . الذى لا تعرفه ولم تكن تعرفه يا صديق العمر اللدود أننا معًا كنا نراك فى عز الظلمة ، ونحن نخنق الهواء والظلام بيننا . كنت أراك تنظر إلى فى صمت وتحقير . وكانت تراك ترمقها تودى فى غيرة وحمية ، فكأنما عز عليك أن تراها تعطى حيث امتنعت !!

كم من مرة صرخت فجاوبتها صرختى . كم من مرة هتفت فجاوبها هتافى . لكن أحدًا لم ينطق باسمك . كنا نعرف أنك هناك بركن من الحجرة أو بالسقف أو تحت السرير ، لكن أحدنا لم يفكر للحظة أن يمد يده ليمسك بك .

ـ مددت يدى إليكما مرات عدة . فما قبضت إلا الهواء . تحتفظ ذاكرتى منه بالرائحة الكريهة .

ـ لك حق .. فهو فى الحقيقة عادم مشاعرنا الحقة !.. هل تعلم أنى كنت أتوقع انتقامك فى أية لحظة ؟.. لم يخطر لى على بال أنى سأدعوك لجريمة فتلبى الدعوة .

ـ لا أستطيع العيش بالسجن وحدى !
ـ كان بوسعى أن أطلقها وأظفر بحريتى .
ـ حرية بدون كرامة .. سجن آخر !
ـ وماذا تسمى السجن الخالى ..؟
ـ كرامة بدون حرية !
ـ وماذا تساوى ؟
ـ ما تساويه الجثة عادة !
ـ أنت الذى جعلت منا جثثًا !
ـ أنت الذى خان .
ـ وأنت الذى دبر للخيانة والانتقام .
ـ لنصمت قليلًا .. لنصمت من فضلك .. إن العنبر يتفرج علينا !
ـ أتخشى الفضيحة .. ليس بعد السجن فضيحة !
ـ أخشى فقط أن نُنْجَر إلى جريمة جديدة ضحيتها أنا أو أنت !
ـ نعم .. عندك حق .. لنصمت .. لنصمت .

[بعد فترة صمت طويلة جدًا .. قال لصاحبه وهو يدارى الدمع يتخلق بعينيه المرهقتين] .

ـ أما بقية القصة فمعروف للكافة .. ولك بخاصة ، بعد أن صرنا ، نحن أطرافها الثلاثة ، فضيحة مسجلة بالشهر العقارى !..

وها أنت ترى النهاية بين يديك .. يا صديق العمر !

[نور الفجر يتسلل من بعيد .. خجولًا حزينًا] .

★ ★ ★

بنات الجن

بنات الجن

كنا ونحن بعد عيالًا بين الحادية عشرة والرابعة عشرة ، نسمع الكثير عن مسرور الأعرج .. الشيخ مسرور المخاوى ، نسمع ولا نراه ، رغم أنه مقيم فى غرفة واحدة فوق السطوح ، فوقنا مباشرة !

لا يفصل شقتنا عن غرفته إلا بضع درجات ، ومع ذلك ؛ كان جميع أفراد أسرتنا يعلمون أن صعود هذه الدرجات بمثابة الخوض فى بحر الظلمات ، وأن من الخير لنا أن نبقى فى حالنا ، وندع الشيخ فى حاله ، منعمًا بلياليه مع بنات الجن .

ربتنا أمنا على أن باب شقتنا ، فى الطابق الثالث ، من الحى القديم بالمنصورة ، هو نهاية العالم ، وخط الأفق ، ومحطة الوصول . ما بعد ذلك ، هو من المحرمات ، ولا يصح مجرد التفكير فى الاقتراب منه . كانت أمى تقول « لا تقربوا الشيخ مسرور حتى لا ينالكم أذاه » ، وكان شوقى أصغر إخوتى ، وأكبرهم جرأة ، وأكثرنا عصيانًا ، يعتبر تحذيرات أمى مجرد كلام ، ترسله خوفًا على أسرتها الصغيرة من لا شىء ، خصوصًا أن الشيخ مسرور لا يكف بحال عن إهداء شوقى بعض قطع الحلوى ، من آن لآخر ، مقابل بعض الخدمات اليومية السرية ، كان أخى يؤديها للشيخ من وراء ظهر الوالدة ، كأن يشترى له الخبز ، أو بعض الشاى .

هذا هو الجانب الذى اختار شوقى أن يكشف لنا عنه ، فى علاقته بالشيخ مسرور ، لكن إحساسى ، كأخ أكبر لإخوتى الخمسة ، كان واثقًا بأن العلاقة أعمق ، دون أن أستطيع أن أعرف كيف هى أعمق ، ولا ما هو موضوعها . كنت أحس أن ثمة شيئًا يشد شوقى لاجتياز خط الأفق المرسوم بصرامة أمى ، وكنا نتجاوز عن انتهاكاته الصغيرة ، لأنه كان يروى فضولنا بحكاياته عن عالم الشيخ السفلى .

بالنسبة لنا ، كان مسرور لغزًا ملتفًا بأحجية وهالات ، نتابع ما يتناهى إلى أسماعنا ، على لسان أمى ، بفضول حارق ، واشتياق جارف للمعرفة ، نود لو ندخل عوالمه ، نود لو ننال بعض حظوته مع تلك الطوابير المصنفة من بنات الجن ، يطرقن بابه ، فوق السطوح ، تحت ضوء القمر ، ليلة بعد أخرى .

لم نستطع للأسف أن نفض غلافه الجوى الجنى .. إلا شوقى . ولقد فعل ذلك بثمن باهظ فادح .

معروف فى الحارة كلها ، أن الشيخ مسرور فقد ساقه اليمنى، فى خناقة مع إحدى بنات الجان ، صبت عليه خام غضبها ، ونفثت فى وجهه النار، فصدها بساقه ، فالتهمتها ، حتى منبت الورك . ويقال إن الشيخ مسرور مر بتجربة البتر بأسلوب تقنى راق ، فقد تمت العملية بالحرق على البارد ، دون ألم يذكر، ودون حتى أن يشعر أحد منا - نحن الذين أسفله مباشرة - بأى صراخ ، مما يرتبط عادة بقطع ساق من جسم حى !

وقيل فى معرض تبرير الواقعة ، إن بنت الأبالسة السفلية ، قد مثلت به على هذا النحو ، لتطفئ نار الغيرة الجحيمية ، التى رعت فى صدرها ، فقد داهمته ذات ليلة اختنق فيها القمر ، وقد استجلب غيرها ، من قبيلة استحكم العداء بينها وبين قبيلتها .

ومن فُجْر الشيخ أنه كان لا يستحضر إلا بنات ملوك قبائل الجان .

ويقول أخى شوقى إن مسرور يسخرهن لأغراض أخرى ، غير تبادل القبلات ، هى كشف المستور ، وفضح المكمور ، ومعرفة اللص سارق الفص .

كانت له قدرة عجيبة على قراءة المندل .

سمعت أمى ذات يوم تقول لقريبة لها ، اسمها الست ألماظة ، تزورنا على فترات متباعدة ، إن الوحيد القادر على رد العقد الذهبى المسروق إليها هو الشيخ مسرور المخاوى .

سألت ألماظة : كيف يرده الشيخ .. أيصنع الأعمال ؟

فقالت أمى وهى ترنو إلى جمال وجه قريبتها : بل يفتح المندل يا ألماظه !

وفتح المندل .. شرطه استعمال طفل .

الطفل موجود ، معجون بماء عفاريت الشيخ مسرور ، وتركزت عينا ألماظه على شوقى ، وحل فيها فوز واكتشاف ، وكانت علاقتها بشوقى ، كلما زارتنا ، علاقة استئناس

وملاطفة ، تداعبه ، وتنفقد بلوغه ، وتضربه على ظهره ، وتحذر أمى من العلامات الطارئة على جسمه ، وتنصحها بعزله عن البنات .

كانت تقول : الولد بلغ .. الولد شقى . خلى بالك يا اختى !

انكسرت مقاومة أمى أمام فكرة استخدام شوقى لفتح المندل عند الشيخ مسرور ، وأحست بحرج مضاعف ، إذ أن زيارتها العلنية لغرفة الشيخ ، هى إيذان بجواز المرور إليه ، والصعود إلى عوالمه .

والظاهر ، كما أدركت بعد أن كبرت أنا الآخر ، أن أمى كانت تلتمس مثل هذه الفرصة لولوج دنيا الشيخ مسرور ، لذلك لم تبطئ قط فى النهوض ، آخذة بيد الست ألماظه ، التى ما إن قامت حتى تعلقت عيناى بجسمها المستخلص من كتلة زبدة بلدى .

ولقد قبع شوقى ، مبديًا رفضه للذهاب معهما ، ربما ليؤكد لأمى تمسكه بتعليماتها الصارمة ، بل ربما ليساومها على قبوله دخول المغامرة . وتبين لى بعدها أن مبدأ المساومة كان محركه الأول ، ولقد اشترته أمى بقطعة بسبوسه ، أما قريبتها صاحبة المشكلة فسددت له قرش صاغ ، ادخره لرحلته الأسبوعية ، كل يوم جمعة ، لمشاهدة السينما .

وكان ذلك القرش ، على تفاهته ، يكفى أيامها لدخول سينما ركس والفرجة على ثلاثة أفلام ، دفعة واحدة ، وقد كنت أصحبه أحيانًا إن توفر لى قرش زيادة ، فندخل فى زحام

وظلام كثيفين ، لكن عصا عامل السينما العتيد عم تفاحه كانت تقودنا بهمة إلى حيث اعتدنا : اعتلاء خشبة المسرح والتمدد تحت سفح الشاشة الكبيرة العريضة .

وهكذا ، كان الناس يشاهدون الفيلم وهم جلوس .. بينما نشاهده نحن - مع عشرات مثلنا - ونحن نائمون على ظهورنا ، قد وضعنا أذرعنا تحت رءوسنا ، لنتمكن من مطالعة مجمل الشاشة .

تلك .. كانت أيام !

فى غرفة الشيخ مسرور ، جرى ترحيب متبادل خاطف . ولأمر جهلته أمى - كما روت لنا بعد ذلك - اختلى الشيخ بقريبتها ، حتى خرجت موردة الوجه ، وكان طلب إلى أمى التزام الباب ، خارج الغرفة .

وبعد الخلوة ، أتاح لأمى الدخول ، وقال إنه بحاجة لطفل ، لأن الأطفال أبرياء ، وأحباب الله ، وهم ببراءتهم أقدر على الاتصال والوصل ، ومعرفة سارق العقد الثمين .

وكان شوقى جاهزًا عند باب شقتنا . دعته أمى فصعد الدرجات مهرولًا ، بخبرة دلت على التكرار .

لدى دخوله ، تجاهله الشيخ كأنه لا يعرفه .

وبهدوء مسح على رأسه ، ودعا له ، وركز نظره فى عينيه ، ركز حتى انكسرت نظرة الولد . حتى خفض بصره . حتى خاف - أو هكذا أظهر .

جاءت يد الشيخ مسرور بفنجان من فوق رف قريب ، كان في مستوى ذراعه ، ثم جاءت يده الأخرى ، بمنديل من عبه .

وباستعمال سن عكازه ، الراقد عند يسراه ، كثعبان ميت مقدد ، أسدل الستارة الرصاصية اللون بفعل التراب والتقادم ، فحلت في المكان ، على ضيقه ، ظلمة شديدة الوطأة ، هبطت على القلوب ، كما هبطت على الأركان .

بسقوط الستار فوق النافذة الصغيرة ، سقط قلب أمي بين قدميها ، كما لا بد سقط آخر حاجز تردد قام بين الست ألماظه وبين رغبة الشيخ . رغبة نبتت من أول لقاء ، وعند أول سلام .

في الوقت ذاته ، مضى شوقي يتلقى سيلًا من الأوامر والنواهي ، بصوت هامس ، قوى ، عميق ، لا يمكن بحال نسبته إلى الرجل الجالس وسط امرأتين ، وأمامه طفل ، يحدق في قعر فنجان ، من تحته منديل أسود .

تلقى شوقي سؤال الشيخ مسرور وهو مسحوب القلب والعقل :

ـ هل رأيته ؟

ـ أراه الآن . الآن أراه .

ـ صفه . صفه . كيف هو ؟ طويل . عريض . لون عينيه .

ـ بل نحيف . نحيف وطويل . له ذراعان طويلتان . عيناه لونهما عسلي !

هتفت الست ألماظه : هو المقصوف . هو ولا أحد سواه . ورحمة أمي هو .

صرخ فيها مسرور : إخرسي . ستقلبين علينا الجن . لقد أزعجتهم !

متضرعة متراجعة قالت همسًا : خرست . حاضر . أنا خرست . سامحوني . سامحني يا شيخ مسرور .

ـ خلاص .

ثم متابعًا أوامره لشوقي : ماذا في يده ؟ ألا ترى ما بيمناه ؟

قال شوقي : الشيء الذي أراه موجود بيده الأخرى ..

ـ حدد لنا ما تراه !

يحدق الشقي الصغير بعمق في قاع الفنجان ، ثم يهتف ظافرًا :

ـ إنه عقد .

ـ من ذهب ؟

ـ من ذهب . لونه أصفر يخطف البصر .

ـ هو .. هو الحرامي .. الخائن أبو سلامه .

مرة أخرى يجلجل صوت الشيخ آمرًا بالخرس ، أما أمي فهمست .

ـ عيب ترمي زوجك بالسرقة يا ألماظه .

ـ لقد سرق عقدي ، ورثته عن أمي .. ابنك الذي شاف والذي قال . والأطفال أحباب الله . ربنا كشف عنه الحجاب . والله يا ولد يا شوقي انت بركة .

يهتف مسرور منزعجًا ، نافد الصبر :

ـ يا امرأة اسكتى !

وهم بطردها ، لولا أن أسرعت يدا ألماظة إلى يديه ، تحتويهما فى توسل وذوب .

وسقطت بالمكان لحظات صمت ثقيلة ، ألجمت الجميع ، ولعل أمى بادرت إلى إزاحة الستار ، من شدة هلعها ، ولإحساسها بأن مسرور تجاوز المقدور ، وربما يأتى عملًا يهدر كرامتها ، وعندما فعلت فوجئت بتغير فى ملامح الشيخ ، ورأت راحة الماظة مشتبكة براحته .

لم تنبس أمى بشىء . وقع اعتراف ضمنى بالحال . لم يتطوع أحد للدفاع عن نفسه . شعرت الماظة وشعر الشيخ أنه من المحال رد الرؤية الساطعة ، إنهما فى وضع المتلبس .

قامت أمى بهدوء وهبطت إلينا ، مخلفة وراءها ألماظة . لاحظت شحوب وجهها ، ورأيت مقدار الألم والمرارة بعينيها ، وتأكدت أن كل خلجة فى ملامحها تصرخ : إخص !

لحقت بها ألماظه بعد أقل من ربع الساعة .

ومن كسوفها ، لمت نفسها سريعًا ، واختلفت إلى بيتها ، مختلية بالمقعد الخلفى ، تحت كبوت حنطور ، مغسول ، مجرور بحصان مصقول .

الولد شوقى شاف كل شىء . لكنه أظهر وجه العبيط للجميع . ولما شدته أمى إلى جوارها ، أدرك أنه سيتعرض لتحقيق موسع ، فبدأ يعد إجابات جاهزة ، كان يتوقع أن تسأله

أمنا عن علاقته بالشيخ مسرور ، لأنه كان يتصرف بخبرة المعتاد على الموقف ، يعرف بالضبط ماذا يراد منه ، وكيف يؤديه ، ثم إنه لم يهلع ولم يذعر ، هو الطفل الصغير ، بينما هوى قلبها هى فى ساحق طيلة الجلسة .

ـ قل لى ولا تكذب . ماذا رأيت ؟

هذا سؤال فى اتجاه آخر .. فلذلك سعد الطفل ، وأجاب بشقاوة :

ـ لم أر شيئًا يا أمى !

ـ يا مصيبتك السوده !

ـ ورحمة جدى ما رأيت أى شىء .

ـ فمن أين جئت بالرجل النحيف ؟

ـ كلمة خطرت على بالى . مجرد كلمة .

ـ كلمة خطرت على بالك . ألا تعرف أن زوج ألماظه طويل ونحيف .

ـ والله .. والله يا ماما .. هى كلمة وردت بلسانى .

ـ طيب .. هات القرش .. ولا سينما هذا الأسبوع !

ـ لكن صرفته .

ـ قلت .. هات .

ـ إليك القرش .. ليتنى كذبت .. كنت نجوت بالقرش وبكرامتى !

ولما روت أمى الواقعة لأبى ، إثر دخوله عائدًا من العمل ، رماها بالمبالغة كعادتها ، ثم طلب إليها إعداد الطعام . غير أنه

عاد فأمن بصدق روايتها ، فى الأسبوع التالى مباشرة ، حين عادت قريبتنا إلى زيارة أمى ، وهى تبكى ، وملابسها ممزقة عند الكتفين ، وبيدها حقيبة ، وجعلت تنشج وتقول : طلقنى اللص .. منه لله .

وكان أشد ما يخيف أبى ، أن تفسح لها أمى فى منزلنا الضيق ، لكن تبين أن الست ألماظة تتمتع بحساسية فائقة وبإحساس صاف ، وبعزم مختلف عما توجس منه أبى ، فقد سلمت على أمى وقبلتها واحتضنتها وهمت بالانصراف قائلة :

ـ سأسكن فوقك .. لن أبعد عنك بعد اليوم .

ـ فوقى .. أين ؟

ولم ترد ألماظه .. فتحت الباب وخطت نحو الدرجات السبع ، وقطعتها ، واختفت بعدها ، بينما عيون أمى وإخوتى .. عيوننا جميعًا ترقب ما يجرى دون تصديق .

قالت أمى فيما بعد إن الشيخ مسرور المخاوى أحسن استقبالها ، وكان فيما يبدو يتوقعه ، فتحسب للمناسبة بما يليق ، ولقد عاملها بحنان ليس من طبع البشر ، وكشفت لأبى بعض التفاصيل المخيفة واللذيذة ـ روتها لها ألماظه بعد فترة ، وكنا نستمع مبهورين ، قد جافانا النوم تحت وطأة الصيف الخانق .

لم يمر وقت طويل . لم يمر وقت طويل حتى اقتحمت علينا ألماظة وجبة العشاء ، بوجه أصفر ممسوس ، وقد انعقد لسانها ، لا تنطق .

لبثت على صمتها بعض الوقت ، ونحن متعلقين بشفتيها .

سألتها أمى عما جرى :

ـ ماذا أصابك ؟.. ألم تكونى سعيدة ؟

لزمت ألماظه الصمت .. حتى شكت فيها أمى وتوجست .. وبعد قليل خرج منها صوت ليس لها ، إنه صوت رجل يرطن بلغة أجنبية . وحلق فوقنا الذعر .

لكن أمى المجربة لاطفتها أو لاطفته ، وأوصت الساكن برعايتها ، فهى سيدة طيبة خانها الدهر ، لكن الذى تلبسها هدد بأن يخنقها ما لم ترجع معه فورًا .

والعجيب أنه نقل فجأة إلى العربية :

ـ ترجع فورًا إلى أين ؟

ـ إلى أهلى وقومى !

ـ وأين أهلك وقومك ؟

ـ هناك .. تحت .

ـ أين .. هناك ؟

وكان الخوف قد نال من أبى أكثر من أى شخص آخر ، فقد أدرك أنه فى مواجهة قوة خارجية ، تتهدد بيته وأسرته ، لذلك ظل ينخس أمى طول الوقت .

ـ اصرفيها .. اصرفيها .. الأولاد سيضيعون منا .

فصاحت فيه أمى بجرأة مستجدة عليها :

ـ مالك مفزوع إلى هذا الحد .. أين الرجولة ؟ اصبر .. حتى أصرفه .

فجاء صوت الرجل من جوف المرأة :

ـ لن أنصرف إلا وهى برفقتى !

ـ قل لى هل أنت مسلم ؟

ـ لن أنصرف إلا بها .

ـ قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق .

ـ لست من شر ما خلق . لست من شر ما خلق . لست بأشر منكم !

ـ ربنا يهديك يا أخى . الله أكبر . الله أكبر .. قل لى .. لماذا تريدها ولديك من بنات الجان ما يذهب العقول ؟

ـ لقد سرق زوجها عقدى ؟

ـ أبو سلامه طلقها .

ـ مسرور سرق أغلى ما عندى .. سرق منى « توته » أميرة الأميرات .. فأسرق أنا امرأته . أسرق أنا امرأته . بل اضربها . هكذا . هكذا . هكذا .

وأخذت ألماظه تلطم ألماظه ، وتركلها ، وتدق الأرض ، وتمزق ملابسها حتى استحى أبى ، بينما رحنا ننظر ونختلس ، ثم تشنجت راحتاها ، وفرقت بين أصابعها ، ثم طوقت عنقها بيديها ، ومضت تضغط حتى طقت العروق ، وأمى تتضرع مسترضية متوسلة ـ السماح والرضا يا أهل السماح والرضا .

الله يخرب بيتك يا مسرور الكلب يا شيطان يا رجيم ، خربت بيت الولية . كانت زيارة سوده .

خرج أبى من جلده ، فهتف :

ـ وإن شاء الله سيخرب بيتك إنت الأخرى .

بصعوبة أفرجت يدها عن عنقها ، بينما أخذت أمى تتلو آيات من القرآن فى أذنيها ، وبعد وقت استردت ألماظه وجهها الوردى المستأنس ، وزالت عنه ملامح استغربناها ، وسحبت نفسًا عميقًا ، دلت بعمقه وقوته على طول الرحلة التى قطعتها .

وبهدوء قامت معتذرة ، مغادرة وسط نظرات من الدهشة والتوجس .

فقد انقلبت إلى غرفة مسرور .

وانقلب أبى على أمى ، لاعنًا ، معايرًا بنعم النسب !

ولم نلبث غير دقائق ، حتى شقت صرخات ألماظه صراخ أبى :

ـ الشيخ مسرور خنقوه . الشيخ مسرور خنقوه .

هرولنا جميعًا إلى فوق ، قطعنا فى ثوان مسافات فلكية إلى منطقة وراء المدارات المعلومة ، وفى الغرفة الحقيرة ، رأينا جثة مسرور ، العيون جاحظة ، والوجه الأسود الترابى قد ازرق فى لون النيلة ، واللسان ملفوظ كزائدة من اللحم الجملى تعرضت للرياح طويلًا ، وشىء من الرغاوى فى الزوايا بين الشفتين .

من نظرة خائفة خاطفة أدركنا أن الرجل قد خاض بحق معركة غير عادلة ، غير متكافئة مع قوة غاشمة ، دهمته كقطار توربينى .

وبعد القبض على ألماظه ، سخرت النيابة من روايتها ، فقد قالت إن قاتله هو غريمه من الجان ، ولما سألها المحقق عن إسم المدعو ، قالت وهى ترتعش خشية أن يتلبسها :

ـ عبد النار !

ولن ننسى ما حيينا ، مشهد النار إذ ترعى بقبر الشيخ مسرور المخاوى ، بعد دفنه بقليل ، إثر انصراف نفر من المعزين ، وكثير من المعزيات ، فلقد لبث شوقى بجوار القبر ، ولصق أذنه بجداره ، مسترقًا السمع ، فاستدق عليه الإرسال ، لكنه لم يمض وقت حتى تناهى إليه صوت السياط والشوم وقرع المطارق ، تهوى على صدر ورأس مسرور . وعض الثعبان الأقرع فى جسمه وهو يصرخ مستغيثًا ، ولا مجيب ، وقد أقسم أخى أنه أحس للحظات بجدران القبر تنقبض فخشى أن تسحبه إلى جوفها فيعاقبه الشيخ مسرور على تلصصه لحظة قيامته !

أما لفح النار فيؤكد الصغير أنها كادت تحرق وجهه ، وأنها وجت بجوف التربة كما وجت فى أيام ماضية موجة النار بقلب فرن البوتاجاز فى بيتنا .

ولذلك آثر الفرار تاركًا الشيخ يموت على مهله !

★ ★ ★

الأستاذ فوزى .. رجل عنيف

الأستاذ فوزى .. رجل عنيف

قفز الأستاذ فوزى من عربة الأتوبيس ، فى ساعة ظهيرة ، فقدت الشمس فيها عقلها ، فاختارت أن تلهب أعصابه هو بالذات بكل ما فيها من حمم ونار !

كان قد تشاجر مع اثنين من زملائه فى العمل بسبب الخلاف اليومى على المقاعد الخاصة بالمكاتب ، ويبدو أن أحدهما حك له على أنفه وعايره بالجرح المفتوح فى قلبه منذ العصر الجليدى ، إذ قال له بهدوء مستفز :

كان الله فى عون زوجتك يا رجل . إنك حقًا لا تطاق .. إنى لا أعرف لِمَ تتحملك ولأى سبب ! صدقنى إنك خال تمامًا من أى مبرر عقلى للحياة مع مجنون !

وخصوصًا الكلمة الأخيرة : مجنون ؟ مجنون ؟

ورفع المقعد القريب منه وهوى به على رأس زميله لولا أن خبطت أرجل المقعد فيما بين الحائط وسطح المكتب فى اللحظة التى تفادى فيها المجنى عليه المحتمل الضربة المؤكدة .

عاد الأستاذ فوزى عبد الحميد إذن إلى بيته ، وهموم الدنيا كلها قد أطبقت على صدره .. فلما طرق الباب كان حادث المقعد لا يزال ساخنًا فى رأسه .. كما أنه كان على وشك

الانفجار فى أحد الركاب ، كان لا يكف عن التأفف منه طوال المشوار من مقر العمل فى العباسية إلى بيته فى السيدة ..

وسبب التأفف ـ للعلم ـ هو أن الأستاذ فوزى رجل كثير الحركة كثير التململ لا يثبت فى مكانه .. والمكان فى الأتوبيس كما هو معروف لا يسمح بترف من هذا النوع .. فالمفروض أن ينزرع الواحد فى الشبر الواقف عليه حتى ينزل بسلام .

لكن كثرة الحركة أثارت الشبهات حول الأستاذ فوزى ، والحمد لله أن المنطقة المحيطة به خلت من النساء السمينات منهن على وجه خاص .. من ناحية أخرى صدرت عن الرجل رائحة غير مستحبة بسبب العصبية والقلق .. ولعلها هى السر الوحيد فى اشمئناط وجه الراكب .

عاد الأستاذ فوزى عبد الحميد محمد المتبولى إذن إلى بيته وهموم الدنيا قد أطبقت على صدره .. فلما طرق الباب كان الحوار الذى جرى بينه وبين أمينه زوجته لا يزال ساخنًا فى رأسه .

والواقع أن الحوار جرى بالأطباق ، ومن سوء الحظ أنها أطباق ميلامين ، تكسر ولا تنكسر .

وقد اضطرت أمينة للرد على صخب الحوار الذى دار لفترة طويلة من طرف واحد إحساسًا منها بأن من قلة الذوق أن تتركه يعوى وحده ، وأن من الواجب عليها المشاركة بحماس فى حوار الأطباق الغاضبة .

قالت له أمينة بعد أن ردت على آخر طبق طار متحطمًا عند قدميها إنه رجل لا يطاق ، وأنها تحتمله كثيرًا ، وأنها تريد الخلاص منه سريعًا ، لأن الحياة مع المجانين تقتضى ضريبة باهظة .

عند ذلك أنصت إليها واجمًا .. وقد هدأت نفسه .. ومضى ينظر إلى نثار الأشياء من حولهما .. وفيها طفلاهما الصغيران مرتعدان وهو لا يصدق أن الحوار الذى بدأ خافتًا انتهى بهذا المستوى من العنف .

وكان الحوار قد بدأ فعلًا خافتًا .. بل رقيقًا .. فى لحظة « صفا » ورضا .. على حافة الفراش .. ضحكة منها وضحكة منه ثم طلب جرىء مقتحم من أمينة ، أنزلته فوق رأسه كالصاعقة ، دون تمهيد كاف فأطارت صوابه .

كان الطلب الكبير الذى فاجأته به هو أن يشترى لها خاتمًا ذهبيًا أعجبها فى خان الخليلى لا يزيد سعره عن مائتى جنيه .

ولم تشفع لها الضحكة كثيرًا ، إذ تكوّر وجهه ثم استطال ثم انتفخ فانفجر وضرب على زجاج الكومودينو بقبضة فاض صبرها فانفلق الزجاج قسمين ونزفت يده بغزارة أنذرت بمضاعفات حادة .

ولولا أن أمينة أدركت للحظات أن الرجل سريع الغضب وأن غضبه سيسرع به إلى مغادرة الحياة ما هلعت هى وهرعت لتطرق باب الطبيب الذى يسكن تحتهما تستغيث به .

وقد أغاثها ..

لكن هذا الطبيب بالذات من دون كل أطباء مصر لم يكن هو الذى يريده الأستاذ فوزى عبد الحميد محمد المتبولى ليوقف نزيف يده المتدفق .

فالواقع أن الرجل يكره الرجل ، ولا يطيقه ، ويشك فى أخلاقه .. ويتوجس منه .. ويشم رائحة علاقة بينه وبين زوجته ..

ولا يتهم زوجته .. لكنه يحب أن يتهم الطبيبْ .. وها هى قد كشفت عن جانب من سلوكها يعزز ويبرر رغبته فى أن يلصق بها اتهامًا .. لقد جاءت به إلى البيت ليعالجه ، وهو لا يريد علاجًا أو شفاء على يد غريمه ..

فلما دخل عليه الدكتور عبد العال هريدى طبيب أمراض النساء والتوليد يرى جرحه تهلّل وجه الأستاذ فوزى مرحبًا فاتحًا ذراعيه مستقبلا هلعه بوجه فرحان موسعًا له بجواره .. قائلًا لزوجته :

ـ قهوة يا أمينة .. قهوتك إيه يا دكتور ؟

ـ لنلتفت أولًا إلى جرحك .

ـ الجرح بسيط ..

ونظر الطبيب .. ثم قال :

ـ يحتاج ثلاث غرز ..

ـ أنا تحت أمرك يا دكتور .

وبعد الخياطة والألم .. أمر الدكتور عبد العال مريضه

الأستاذ فوزى عبد الحميد بالتزام الفراش فورًا .. فلما فعل بمعاونة أمينة .. وخرج من الغرفة أحس الأستاذ فوزى أنه أعطى فرصة للطبيب لينفرد بزوجته .. فلعن نفسه فى سره وأراد أن يكتم قلقه فلم يستطع ، فانطلق فى صرخة حادة ينادى :

ـ يا أمينة ..

كان الطبيب قد غادر الشقة بالفعل .. وكانت أمينة عائدة إليه بسرعة لكنه ظل يصرخ :

ـ يا أمينة .. ماذا تفعلين عندك ؟

ـ وماذا تظننى أفعل ؟

ـ لقد مضى وقت طويل منذ خرجت فى إثر الدكتور عبد العال ..

ـ ماذا تقصد ؟

مات إحساسه فجأة .. كأنها جردت عقله من ظنونه وبانت عورته بعنف وتراجع ليقول :

ـ لا أقصد شيئًا ..

وكأنما ضبط نفسه ضعيفًا فانتفض فيه عرق الغضب المعتاد وأسرع مستدركًا ..

ـ وماذا تظنين أقصد ؟ لا أحب لك أن تسيرى برفقة رجل غريب داخل شقتى ؟

- أسير برفقة رجل غريب .. داخل شقتك ؟ فوزى هل جننت ؟

- أليست هذه هى الحقيقة ؟ هى الحقيقة أم لا ؟

- إنه الطبيب ومن الواجب أن أصحبه حتى الباب بعد أن خدمك ورفض أية أتعاب بعد الجراحة التى أجراها .

- لكننى لم استدعه لخدمتى انت التى سعيت إليه واخترته .

- سعيت إليه ؟.. أنت مجنون .. بكل المقاييس مجنون .

- أنا مجنون ؟

- ليس قولًا .. بل فعلًا ..

وهب مغضبًا من فراشه فأشارت إليه بذراعيها أن يهدئ من روعه .. لأنها لن تنقذه هذه المرة .

- لمه ؟

- لأننى سأترك البيت الآن وفورًا .. حتى تعقل ..

ونزل عليه الإنذار كالقضاء ، فلان وجهه ولسانه ومضى يقول :

- لا تؤاخذنى مريضًا مجروحًا ..

- أنت تجد لذة فى إيلامى وإهانتى ..

- بل أتعذب بإيلامك وإهانتك .. لا أعرف ما الذى يدخلنى فيقلبنى عليك كأننى ملتبس بشيطان ..

- وإلى متى ستظل هذه الحالة ؟

- حتى يأذن الله .

- يمكنك عرض نفسك على طبيب أمراض نفسية أو عصبية .

أطرق كاظمًا غيظه .. ثم قال :

- إن شاء الله سأفعل ..

ووعدها أن يفعل .. لكنه ذهب إلى العمل وهوى بالمقعد على رأس زميله فى العمل .. ثم كاد يشعل نار معركة أخرى فى الأتوبيس فلما طرق الباب كان حادثا المقعد والأتوبيس ساخنين فى رأسه .. كما كان الشك يمزق أعصابه ويخيل إليه أنه سيدخل شقته ليجد الدكتور عبد العال قد تزوج من زوجته ..

ظل يطرق طويلًا دون أن يفتح الباب ، ضغط على الجرس ضغطة عاصرة دون أن يستجيب مخلوق من داخل الشقة . دفع الباب بعنف . لم ينفتح كسر الشراعة الزجاجية بقبضته السليمة فنزفت فلم يأبه .. فمد أصابعه المتحسسة حتى عثرت على المفتاح وشدت الترباس لكن الباب مغلق بالمفتاح من الخارج ثلاث قفلات ، ومن شدة الطرق ثم صوت الزجاج يتحطم ، خرج الدكتور عبد العال من شقته مفزوعًا يسأل ويستفسر فلما رأى الأستاذ فوزى عبد الحميد محمد المتبولى أسرع يخبره أن زوجته تركت له المفتاح معه ومد يده فى جيبه وأخرجه إليه .. فطالعه بعيون متسائلة وقلبه هابط إلى قدميه ..

- ألم تترك لك ورقة ؟

ثم وهو يمد رقبته من فوق الدكتور عبد العال يريد توصيل أنفه إلى مصارين الشقة يتشمم رائحة أمينة التى يعرفها من بين نساء العالم .

تعجب د . عبد العال وأدرك بسرعة أن الرجل يشك فى أن زوجته لديه فأدار له عينيه غاضبتين مستنكرتين .. ردت الأستاذ فوزى إلى عقله فأخذ المفتاح وهو يقول فى ضعف :

ـ متشكر .. متشكر ..

ونظر إلى بابه المحطم .. ونذم . ثم أدار المفتاح فى الباب ودخل .. ففغمنه رائحة زوجته المولية ولمس حضورها فى قلبه وفى الزوايا وعلى المقعد التقليدى لجلستها أمام التليفزيون .

ودخل حجرة النوم . وقف أمام المرآة فرأى رجلًا فى غاية الغضب والضيق ، مضى يعاتبه ويزجره ويقول له :

ـ أنت السبب .. أنت السبب ماذا تريد منى ؟ قل لى بالضبط ماذا تريد منى أن أفعل أو لا أفعل ؟

عشت طول عمرى وأنت تركبنى .. تحرضنى .. فأنحنى لرغباتك .. تدفعنى على أعدائك .. وهم أصدقائى .. تستعملنى عليهم لأرضيك . إنى فى الواقع أحبهم وأنت تكرهنى .. أنا أحبك انت أيضًا وانت تكرهنى رغم مزاعمك .. لقد أفسدت علاقتى بنفسى وبزوجتى وبالعالم . هذه ليست حياة . لا بد أن تموت لترحل عنى .. أرجوك اخرج من تحت جلدى .. غادر أوعيتى الدموية .. دع دمى يجرى فى جسدى نقيًا .. أرجوك أخرج ..

ثم خر جاثيًا على ركبتيه .. وصارت نظراته فى مستوى درج أمامه .. سحبه ثم تناول زجاجة أدوية وهو يقول :

ـ الحياة لمثلى هى الموت لغيرى .. لا بد من الرحيل .

ووقف متلهفًا وفتح الزجاجة .. وإذا بالرجل فى المرآة يقول له :

ـ لن تفعل يا جبان ، فحتى لو انتحرت لن أغادرك هل تعرف لماذا ؟

ـ لماذا ؟ قل لى لماذا ؟ ارحمنى

ـ لأننى الحقيقة وأنت الطارئ . أنا جوهرك غير الزائف وأنت الصورة الكاذبة ومهما قلت ورفضت فالناس يعشقوننى أنا لا أنت . أنا العنيف لا أنت الضعيف .

ثم سكت قليلًا ليقول :

ـ بعد قليل ستطرق زوجتك الباب ستعود إلىّ لا إليك .

وتهلل وجهه وقال :

ـ أتنطق حقًا ؟

ـ اسمع !

فأصغى إلى طرق على الباب ..

أسرع مهرولا يفتحه .. وجدها .. فلم يصدق .. أراد أن يتلقاها بين ذراعيه فأزاحته جانبًا وهى تقول مازحة :

ـ لم آت من أجلك أنت !

ـ جئت إذن من أجله هو ؟

تفرسته مليًا .. ثم اكفهر وجهها غضبًا دفعة واحدة وقالت وهى تستدير :

ـ لقد أعطيتك بمجيئى آخر فرصة .. لكنك ما زلت رجلًا تعيش فى الشك .. ولن تستقيم لنا حياة معًا .. انى عائدة .

صاح فيها متوسلًا :

ـ انتظرى يا أمينة .. ما قصدت الدكتور عبد العال قصدت .. قصدت ..

جرت على السلم .. وهو يلهث وراءها ..

★ ★ ★

أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

محمد حسن الألفى

ساعة الحظ

« ليست كأية بنت . إنها مختلفة . إذا حضرت فى المكان أرسلت فى الحاضرين شعورًا بالسعادة ، وإن غابت افتقدوها ، والتمسوها ، وأحس كل واحد منا ، نحن الطلبة ، بخلل داخلى ، يخاف أن يكشفه حتى لاتمضغه العيون والألسنة . بنت يكتمل بحضورها وجودك ، وينقص بغيابها كيانك ، تغمرك الفرحة إذ ترضى عنك ، وتسكنك تلال الكآبة إن مر بوجهها كدر أو بعض كدر » .

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع